القائد الأعظم
محمّد على جنّاح

تأليف

عباس محمود العقاد

مقدمة المؤلف

كتبت عن القائد الأعظم كلمة تقدير يوم سمعت بنعيه منذ ثلاث سنوات ، اعتمدت فيها على المعلومات المتفرقة التى تناثرت الينا من أخبار الصحافة والاذاعة ، وكلها نتف قصيرة لا تجتمع منها سيرة وافية تكفى للتعريف بالرجل العظيم

ولكن هذه المعلومات كانت كافية للتنويه بعظمة الرجل، وان لم تكن كافية لتأليف كتاب فى سيرته ، وقد كان تأليف كتاب عن « جناح » من الموضوعات التى أعقد النية عليها فى سياق متابعتى للحوادث العصرية ، ثم أترك تحقيقها لحينه كلما استطعت التفرغ لموضوع بعد موضوع

وقد كان محمد على جناح وفاق شرط العظمة عندى بين زعماء الأمم ودعاة الأمم المغلوبة الى الاستقلال

وشرط العظمة عندى فى هؤلاء الزعماء : همة الجبابرة من رجال العمل ، وطموح المثاليين من المؤمنين بالفكرة .. وهما خصلتان لا تخفيان من أقل الاخبار التى تروى عن جناح فى ابان جهاده . فانه رجل تصدى بهمته العالية لتحقيق فكرة مثالية ، سمع بها « الخبراء » فأجمعوا ـ أو

كادوا يجمعون ـ على أنها مستحيلة ، وان جناحا يتخبط فى الظلام وراء خيال لا يطلع عليه النور

وطلع النور على الخيال ، فاذا هو « خيال » ثابت كالجبال

كان جناح وفاق شرط العظمة بهذا وبما يزيد عليه ، وهو الخلق المكين الذى يقاوم كل اغراء ولا يتخاذل أمام الوعيد

والتمست المراجع الوافية عنه فلم أجدها ، ثم تتابعت هذه المراجع سنة بعد سنة ، واطلعت منها على الكتب وعلى الفصول ، ومنها ماكتبه أبناء الباكستان وماكتبه المنصفون من الغربيين فى عرض الكلام على السياسة الشرقية ،ومنها ما كتبه من أبناء الغرب والشرق أناس غير منصفين،ولكنهم يروون على الرغم منهم أخبار الرجل فتعليه وتزكيه من حيث يريدون انتقاصه والقدح فيه ، ورب واقعة يسوقها العدو فيسجل بها شهادة لا تتهم ، لانها تكشف عن مواطن للثناء لا يقصدها الأعداء

وتجمعت المراجع التى تكفى لتأليف كتاب عن القائد الأعظم فألفت هذا الكتاب

قال لى بعض أصحابى حين علموا اننى أكتب كتابا عن جناح : « لا جرم وقد كتبت عن غاندى ألا تفوتك الكتابة عن جناح ! »

خاطر طبيعى لا غرابة فى سبقه الى الاذهان ، لان السبب

الذى تخيلوه للكتابة عن محمد على جناح سبب وجيه ،فمن حق الباكستان علينا ألا نسكت عن زعيمها وقد أعطينا الهند حقها فى زعيمها ، ومقام القائد الأعظم فى الشرق قرين لمقام « المهاتما » الذى سميناه بالروح العظيم

على أن هذا السبب « الوجيه » لم يكن هو فى الواقع سبب تأليف الكتاب

لأننى « أولا » لم أؤلف كتابى عن غاندى رعاية لدولة الهند ولا لمرجع من مراجع السياسة،ففى الكتاب ما لا يوافق الهند ولا يوافق الباكستان

انما ألفت الكتاب عن غاندى « بحقه الشخصى » أو بحق عظمته ومغزى هذه العظمة فى تاريخ الانسان

ولأننى « ثانيا » قد نويت الكتابة عن جناح وعن غاندى فى وقت واحد ، ولكننى وجدت المراجع لكتاب غاندى متوافرة متكاثرة ، ولم أجد المراجع لكتاب القائد الأعظم كاملة أو قريبة من الكاملة ، الا منذ بضعة أشهر

وكتبت عن جناح كذلك « بحقه الشخصى » وحق عظمته ومغزاها الخالد فى تاريخ الانسان

فالكتابة عن القائد الأعظم واجبة لانها تجلو للناس ، وللشرقيين خاصة ، صورة من صور العظمة الانسانية

وهى عدا هذا واجبة لدلالتها فى تفسير أطوار الأمم وأسرار التاريخ ، والزاد الذى يتزوده الدارسون من سيرة جناح فى هذا الباب أوفر من زادهم فى سير عشرة من العظماء

وهذا الذى عنينا به عناية خاصة فى وصف عظمة الرجل

ووصف العظات التى يخرج بهـا نقاد التـاريخ من نشأة الباكستان

وبين يدى القارىء صورة من صور العظمة الانسانية ، ودرس لا نظير له فى فلسفة التاريخ،أو فيما نسميهالعوامل التى نتطلع اليها من وراء حركات التاريخ

عباس محمود العقاد

سياسى صادق

نادر المثال

قرأت أكثر من مائتى بيان للقائد الأعظم زعيم الباكستان محمد على جناح (١) .. منها الخطب فى المحافل، والرسائل الى الاصدقاء والخصوم ، والتصريحات فى الصحف ، والمناقشات والمساجلات : ما هو مكتوب منها وما هو ملفوظ مرتجل، فخرجت منها بعقيدة راسخة عن عظمة هذا الرجل. ان القائد الأعظم ولا شك رجل عظيم نادر المثال بين عظماء الرجال

لم أتبين هذه العظمة من بلاغة أسلوبه ، فان الزعماء الذين هم أبلغ منه كثيرون ..

ولم أتبينها من سعة معلوماته ، فان سعة المعلومات والعظمة لا تتلازمان فى جميع الأحيان ..

ولم أتبينها من قوة العقل ، فقد يكون العقل قويا وصاحبه غير عظيم ، بل قد يكون العقل قويا فى الشر والأذى فلا يحسب صاحبه من عظماء الأمم ولا من عظماء الانسانية ..

لكننى تبينتها من خصلة نادرة جدا فى قادة الشعوب ، وهى « الصدق الصريح فى جمع الاقوال وجميع الاحوال »!

---

(١) يلقب جد القائد الأعظم بجنه أى « النحيف » باللغة الكوجراتية ، وقد آثرنا الاسم الشائع بين قراء العربية على طريقة العرب فى نقل كثير من الاسماء



محمد علی جناح

فمن المألوف فى قادة الشعوب أن تكثر فى أقوالهم الوعود الطنانة والكلمات البراقة ، وأن يكون خطابهم للجماهير كالتنويم الذى يسوقها الى الطريق التى يهواها الخطيب

ويتفق كثيرا أن يكون الزعيم مخلصا غيورا على مصلحة قومه وهو يتصرف بتلك الاساليب ·· ولكنه يخاطب الناس بما تعودوه ولا يبالى أن يقنعهم بالوسيلة التى يرضاها ما دام اقناعهم للخير والفلاح ، وما دامت قيادتهم لا تتأتى بغير هذه الوسيلة ، ولو اننى وجدت فى كلمات القائد الأعظم مسحة من هذه الألوان الخطابية لما أصغرته من أجلها ولا اتهمته فى اخلاصه وصدق دعوته ، ولكننى أكبره لا محالة اذا خلا كلامه منها وبلغ مع هذا غايته وغاية قومه على أقوم منهاج

تحدث القائد الأعظم بهذه الاقوال أو كتبها خلال أربعين سنة من عنفوان صباه الى أن علت به السن وجاوز السبعين ، فلم تختلف فى واحدة منها تلك المزية التى تكبره وترفعه للناس مثلا بين زعماء السياسة وقادة الشعوب ·· وهى مزية الصدق الصريح ، بل مزية الصدق البسيط الواضح الذى لا يشوبه مرة واحدة بتزويق أو تنميق

كل ما قرأته له من تلك البيانات التى جاوزت المائتين صالح لان يقال أمام هيئة علمية محققة ، أو أمام هيئة قضائية بعد حلف اليمين

وعد فى حدود الامكان والنفاذ ، وصدق تتساوى فيه الروية والارتجال ، وخطاب للجماهير يصارحهم فيه بعيوبهم

أحيانا ولا يتملقهم حينا واحـــدا بقول لا يقوله بينه وبين نفسه على انفراد

ان هذا الرجل عجيب ٠٠ ان هذا الرجل عظيم ٠٠

وأدعى الى العجب منه والايمان بعظمتـــه انه نشأ على مذهب الاسماعيلية المعتـــدلين ، ومذهبهم يبيح للمعلم أن يصطنع التقية ، وأن يخاطب الناس على درجات فى الفهم والاقناع ، ولكن الرجل لم يتقيد بهذا المذهب فى هــذه الخصلة ولا فى غيرها من الخصال ، ولم يفارق سجيته التى فطر ودرج عليها ومات عليها،شبابه فيها وشيخوخته سواء

موقفه من الطلبة والعمال

كان الزعماء جميعايخطبون ود الطلبة الذين يتعلمون فى البلاد الانجليزية ، ويعلمون انهم عماد المستقبل ، وأن من يكسبهم فى حاضرهم يكسب الجيل المقبل فىالسياسة وفى القيادة الشعبية ، ولكنه كان يؤمن بأن الطـــالب يحق له الاهتمام بأمراضقومه،ولكنه لا يحق له أنيتصدى لمعالجتها، ولما دعى لمخاطبتهم فى سنة١٩١٣ قال لهم وكان يومئذ فى مقتبل حياته السياسية :

« ان موقف الطلبة فى هــذا البلد فرد بغير نظير ، لانهم نموذج مختـــار من صفوة أبناء الأمة الهنـدية وخيرة من تستطيع اخراجهم وتربيتهم ، انهم هنا الأمناء على ســمعة بلادهم٠ويسوءنى أن أقول انهم فى الوقت الحاضر من حيث العلاقة بالمجتمع البريطـانى لا يظفرون بسمعة حسنة ولا بسيرة طيبة ، فهم بدلا من سلوك مسلك الطلبة فى التعلم

والانتفاع بأفضل ما فى الحضارة البريطانية التى لم يكسبها القوم الا بعد رياضة العصور المتعاقبة - يغفلون هذا الواجب ويقصرون حياتهم العامة على التراشق بالعبارات النابية فى خصومات السياسة . دعونى أذكركم انكم لم تدركوا بعد مرتبة الكفاية لتناول المسائل السياسية التى تتمثل فى بلادكم ، وما من أحد يقدر غيرتكم فوق قدرى لها ويفهم الاسباب التى حملتكم على ما تصنعون خيرا مما أفهمها ، ولكن الوقت قد حان لاعادة النظر فى موقفكم بعين الجد والسداد ... وتسألوننى ما هو المطلب الذى يراد من جماعتنا ، فاعلموا اننا فى دور الاستعداد لتنشئة الاحوال التى تمتد بها نظرتنا القومية الى نطاق أوسع وأكمل، واعلموا ان الرجال الذين يساهمون اليوم بالنصيب الأوفى فى السياسة الهندية هم أناس تعلموا فى انجلترا وعادوا الى بلادنا لخدمتها ، فاختلطوا بالبيئات الانجليزية واتخذوا الاصحاب منها ، وليكن واجبكم الأول قبل هذا أن تلتقوا بأبناء وطنكم وتعرفوهم حق معرفتهم ، فان مقامكم بانجلترا هو الفرصة التى تجمعكم بغيركم من أبناء الهند الذين ينتمون الى جميع أقطارها »

وخاطب الطلاب من كلية عليجرة الهندية وقد مضى أربعون سنة على ذلك الخطاب فى انجلترا فقال :

« اجتهدوا أولا فى رياضة أنفسكم على الشعور بالتبعة والواجب ، وليكن همكم بناء أخلاقكم فهو خير من الشهادات والاجازات. ان العناء فى تحصيل الشهادات والاجازات بغير خلق ضائع ، وعليكم أن تربوا فى أنفسكم روح الكرامة

والاستقامة والقيام بما هو مفروض عليكم ، وما نحن دون غيرنا من الامم مقدار ذرة ، وانما كانت آفتنا من اهمالنا لهذه الصفات ونحن قادرون عليها • وصدقونى عن يقين : ان الباكستان لكم خالصة يوم تتمكن هذه الصفات منكم »

وكان القائد الاعظم يزور كلكتا فى شهر مارس (سنة ١٩٤٦) داعيا للعصبة الاسلامية فوجه اليه وفد من العمال بعض الاعتراضات على تكوين العصبة وقال له أحدهم :

« يقول الناس ان العصبة الاسلامية طائفة من الاغنياء لا محل بينها للفقراء »

فأجابه القائد الاعظم قائلا فى صراحته التى لا التواء فيها: « من هم أولئك القائمون بالعصبة ؟ انهم ليسوا أغنياء • ودستور العصبة ، بعد ، دستور ديمقراطى ، فان كان فى العصبة أغنياء طماعون فهم هناك لضعفكم أنتم وتهاونكم ، لانكم لا تختبرون قائدكم قبل اتباعه ، وما للزعماء من قوة غير التى يستمدونها من الشعب ومن الفقراء ، فعليكم قبل أن تسلموهم زمام القوة ان تختبروهم فمن وجدتموه غير أهل للأمانة فانبذوه »

قال أحد العمال : « ان بعض الرؤساء لا يهتمون اهتماما فعالا بشئون الشعب وشكاياته » • فعاد القائد الأعظم يقول : « اذن عليكم أن تخرجوهم • فانما أنتم الذين تصنعون الزعماء ، فان لم يعرفوا الأمانة فلا تقلدوهم الزعامة ، وعاملونى أنا هذه المعاملة ، واتخذوا من مستر تشرشل مثلا تعتبرون به ، فانه على كونه أنجح قادة الحرب قد نبذته أمته »

شجاعته فى معارضة الجماهير

واتفق مرة ان هيئة المؤتمر وهيئة العصبة الاسلاميه معا اجمعتا على سياسة واحدة فى مسألة الخلافة ، ولم يكن جناح على رأيهم فى الخطة التى أجمعوا عليها ، فوقف وحده يعارض المؤتمر والعصبة ومن ورائهما الجموع الثائرة ... وكان فى الاجتماع نحو خمسة عشر ألفا يتلهبون حماسة ويصفقون للمقترحات المعروضة عليهم تصفيق المأخوذين بنشوة عارمة لا يقف فى طريقها معترض يبالى بشهرته بل بحياته . الا هذا الرجل الفذ العجيب ، فانه لم يوافق ولم يسكت ، ووقف وحده ينقد آراء الخطباء وحماسة المجتمعين . وكان فى الهند يومئذ مستر ودجوود مندوب حزب العمال، فكتب يقول : « ان الهند ماضية فى طريق الحرية ، لان فيها رجلا يستطيع أن يثبت على رأيه فى وجه الجموع المخالفة »!

أما مستر جنتر مؤلف الكتب المشهورة عن داخل أوربا وآسيا وأمريكا فقد قال : « ان الرجل حفر قبره بيديه »

وتؤاتيه هذه الشجاعة اذ يخاطب الغوغاء وهم فى غليان التعصب كما تؤاتيه اذ يخاطب جمهورا من أعضاء المؤتمر والعصبة ، فمن مواقفه التى يندر جدا أن يقدم عليها أحد من الساسة موقفه بين المسلمين والسيخيين فى خلافهم على موقع تنازعوه ، فقال المسلمون انه مسجد قديم ، وقال السيخيون انه ملك لاجدادهم لا ينزلون عنه، وهاجت الفتنة هياجها وتساءل الناس كيف يواجه الرجل هذه الثورة الجائحة ، فاذا به يذهب الى مكان الاجتماع هادئا ساكنا كأنه يذهب الى مجلس سمر ، وتطلع اليه المجتمعون فلم

يتكلم ولبث هنيهة يدخن سيجارته حتى فرغ من تدخينها، وبدلا من أن يعديه هياج الجموع أعـدى الجموع هـــدوؤه وسكينته فسكنت جائشتهم ، وظلوا يترقبون كيف يبـدأ الكلام وماذا عسى أن يقول ، فلما تكلم كان كلامه آخر شيء توقعوه ، لانه لم يتملقهم ولم يجاملهم ، بل أخذ فى تبكيتهم لانهم يتعرضون لمسألة دينية بوســائل غير دينية وليست مما ترضاه عقيدة المسلمين ولا عقيدة السيخيين، ومن عجيب قوته أنه أخجلهم ولم يثرهم بذلك التبكيت، ثم مضى يعرض للمسألة المختلف عليها ويبين لهم انها من المســـائل التى تعرض على القضاء ليفصل فيها بالحجة والبينة ، لانها نزاع على عقار • فان ثبت انه مسجد قديم فالمسلمون أولى به ، وان لم يثبت فشأنه شأن كل بقعة يملكها غير المسلمين

وقد أبت صراحته فى كل موقف أن يجامل الهيجة الغالبة فى وقت من الاوقات وان هانت فيه ظواهر المجاملة • فماذا عليه مثلا لو لبس كساء الزى الشائع الذى اصطلح عليـــه جماعة المغزل من البراهمة والمسلمين اقتداء بالمهاتما المبشر بذلك الكساء ؟ لقد كان فى اجتماع ناجبور الذى سـبقت الاشارة اليه نحو خمسة عشر ألفا يلبسون «الخادى» ولكنه هو وحده حضر الاجتماع بملابسه المعتادة لانه لم يكن يؤمن بحركة المغزل ، فلا يبيح له ضـميره أن يلبس « الخادى » ساعة أو سويعات وهو لا يرى فى حركة المغزل حلا للقضية الهندية

والذين خبروا الرجـل من قريب يشهدون له بهـــذه الصراحة المستقيمة التى تشهد بها أقواله وأفعاله ، ومنهم

انجليز وبرهميون ، ومنهم مسلمون يخاصمونه ولا يقرون سياسته ، ومنهم من اتهم غاندى فى صراحته ولم يخطر له قط أن يتهم صراحة جناح . قال بيفرلى نيكولاس Beverly Nicholas : « ان الفرق بين جناح والسياسى الهندى هو الفرق بين الجراح والساحر » . وقال الديوان شمان لال : « انه أحد الرجال القلائل الذى لا يخدم مأربا شخصيا ولا يرمى الى غاية نفعية . ان نزاهته فوق الشبهات »

ومع هذه الصراحة يشهدون له بقدرته على الاقناع ، وتأتى هذه الشهادة ممن لا يشهدون لشرقى بالرجحان على أساطين الغربيين فى أمر من الأمور . قال مونتاجو وزير الهند فى الحكومة البريطانية : « ان شلمسفورد حاول أن يناقشه فوقع فى كتافه ، وانه لرجل بارع جدا ، ومن الغبن الصارخ ان رجلا مثله لا تتاح له الفرصة لتدبير أمور بلاده»

قرأت ما قرأت للرجل ، وقرأت ما قرأت عنه ، فلم أجد ظلا واحدا يخالط ذلك النهار الواضح من صدقه واستقامته فى تعبيره : سياسى لا يبطن غير ما يظهر ، ولا يعنى القليل وهو يجهر بطلب الكثير ، ولا يدخر للصفقة الاخيرة مساومة لم يكشفها من الصفقة الاولى ، وهو يقود أتباعه بغير خداع ولا تهويل ولا تهوين ولا تنويم ، فكيف أفلح فى مسعاه وقد أفلح فيه حقا غاية ما يستطاع من الفلاح ؟

لابد من سر فى الرجل ، أو لابد من سر فى القضية التى تجرد لها ، ولعل السر فى الرجل والقضية معا وهو الذى قدرناه ولمسنا شواهده ولم نزل نلمسها كلما اطلعنا على جديد فى سيرة جناح وسيرة الباكستان ، وفى الصفحات التالية بيان هذا السر المبين

انفصال الباكستان

ضرورة لا محيد عنها

ضرورة لا محيد عنها

كان انفصال الباكستان ضرورة لا محيد عنها٠٠ضرورة حاول ساسة الهند جميعا أن يتجنبوها فلم يفلحوا ، وأن يتجاهلوها فلم يستطيعوا ، لانها غير قابلة للتجنب أو التجاهل ، فهى الحل الوحيد الذى تستقر عليه مشكلات الهند كما تستقر المادة فى موضعها بحكم قوانينها ، فهى ختام كل محاولة

وقد كانت المحاولات كثيرة متعددة ، وكان المشتركون فيها كثيرين متعددين ، منهم انجليز ومنهم هنود برهميون أو بوذيون أو جينيون ، ومنهم هنود مسلمون على مذهب السنة أو على مذهب الشيعة ، وقد يكون من حسن الشهادة للزعماء المسلمين أنهم جميعا بدأوا حياتهم السياسية وهم من أنصار الوحدة الهندية التى تشمل أقوام الهند كافة ، وانهم جميعا جربوا كل محاولة قبل المحاولة الاخيرة،ولكنهم كما أسلفنا كانوا يتجاهلون حقيقة لا تقبل التجاهل،فعادوا الى الاعتراف بها مكرهين ، ثم آمنوا بها ايمانا لا يتزعزع ٠ لان التجارب التى استغرقت كل تجربة معقولة قد خلصتها من الشكوك وختمت بالحسم الفاصل كل محاولة ، فلا سبيل الى محاولة جديدة

وكان ايمان الجماهير فى هـذه القضـية سابقا لتفكير الزعماء

كان ايمان الجماهير بوجوب الانفصـال شيئا أقوى من الرأى وأقوى من الرغبة وأقوى من الهوى. كان كأنه القابلية المادية التى تتمثل فى خصائص الاجسام : جسم لا يقبـل الذوبان فى جسم آخر ، فلا موضع هنا للآراء ولا للرغبات ولا للاهواء

لهذا تساوى منطق جناح وشعور أتباعه ، ولهذا تلاقى تفكيره العملى وغيرتهم القلبية ، فلم تكن به حاجـة الى اثارة شعور أو تلبيس حقيقة بطلاء مقبول ، لان الكلمة الصريحة المستقيمة هنا كافية بل فوق الكافية ، اذ هى الكلمة اللازمة دون غيرها . فكل ما عداها ضياع واسراف وفضول ، ومن عجائب القصد فى أطوار الطبيعة أن يدخر جناح للنهوض بأعباء هذه القضية ، لانها قضـية لا تتطلب زعامة تنفق جهودها فى التزويق والتـأثير ، بل تتطلب الزعامة التى تجسمت قوتها كاملة فى الصراحة والاستقامة الى القصد ، وتجمعت وسائلها كلها فى التنظيم ومضاء العزيمة وصحة التفكير، فكان تفكيره السليم وغيرة أتباعه قوتين متشابهتين فى العمل والاتجاه

كان معظم المتتبعين لمشـكلات الهنـد يتخيلون مسألة الباكستان كأنها مسألة قلة تنشق عن الكثرة فى وطنها ، وكانوا يحكمون عليها كما تخيـلوها فيخطئون غاية الخطأ ، ولا يحسنون الاهتداء الى رأى سديد فى تلك المشكلات

وتصحيح هذا الخطأ هو الخطوة الأولى التى لابد منها قبل

الاستقامة على الطريق السوى ، فاذا صحح هذا الخطأ أول الأمر فكل خطوة بعده واضحة لمن يريد أن يبصر بعينيه

لم تكن الهند قط وطنا واحدا بأى معنى من معانى الوطنية ، ولم يكن لها قط اسم واحد قبل دخولها فى حوزة الدولة البريطانية ، وانما أطلق عليها هذا الاسم لانه أيسر من اختراع اسم جديد ، وما كانت الهند قبل ذلك تطلق على غير نهر السند ثم واديه ، وهو جزء من القارة الهندية كان يجهله كثير من سكانها المتفرقين فى أرجائها الفساح

بل لم تكن قط وحدة جغرافية فى زمن من الازمان ، اذ كانت المواصلات فيها منقطعة أو متعذرة ، فلم تكن أنهارها موصلة الى جميع أجزائها، ولم تكن وسائل النقل فيها تقوى على وحول الامطار فى الشتاء ، ولم تكن الحاجة اليها ماسة فى غير الشتاء

وليس سكانها من جنس واحد ولا هم يتكلمون لغة واحدة ، فمنهم الآريون والسود ، ومنهم قبائل من المستوحشين يبلغون نيفا وعشرين مليونا ، ويرجح علماء الاجناس انهم من أصول القبائل الاسترالية ، وقد أحصى السير جريرسون Grierson اللغات واللهجات التي يتكلمها هؤلاء السكان الهنديون فبلغت نحو مائتين وخمس وعشرين لغة ولهجة (١) أكثرها لا يكتب بحروف

والمشهور ان الطبقات فى الهند أربع تشمل طائفة المنبوذين وهم نحو ستين مليونا يحرمون على أنفسهم الاتصال

---

(١) كتاب الهند والباكستان والغرب تأليف برسفال سبير Percival Spear

بهم . ولكن هذه الطوائف الاربع هى الطوائف الكبرى التى تتفرع على كل منها عشرات الطوائف تنطوى كل منها على نفسها فى مسائل العبادة والزواج والمعيشة ، وتتعصب لتقاليدها تعصبا لا هوادة فيه ، والراجح من كلمة الطائفة فى الهند ـ وهى فارونا Varuna ـ انها فاصل بين أجناس تختلف بالدم والسلالة ، لان الكلمة تعنى اللون ، فهى تفصل بين أقوام متعددى الالوان ، ومع هذا سرى نظام الانقسام الطائفى حتى شملت العزلة فى كثير من الاحوال أبناء الحرفة الواحدة وأبناء الموقع الواحد ، وبلغ من تقديس هذه الفوارق ان اشاعة عزم الانجليز على الغاء الحواجز بين الطبقات كانت من أسباب العصيان المشهور فى سنة ١٨٥٧

التعصب الدينى

والتعصب بين المختلفين فى العقيدة من أهل الهند أصعب أنواع التعصب المعروف فى كل اختلاف. لانه لا يقوم على تباعد الآراء بل على تباعد العادات الاجتماعية التى تحس فوارقها فى كل يوم بل فى كل ساعة ، ومن أعسر الأمور تعديلها لانها تتعلق بالحياة الابدية لا بحياة الفرد من مولده الى وفاته ، فمن ولد من طبقة المنبوذين مثلا فهو قضاء أبدى يسبق مولده ويلاحقه بعد وفاته ، فكل تعديل فى نحلة من النحل أو فى شعائرها ومراسمها فهو هروب من المشيئة الأبدية التى يتعلق بها خلاص الارواح

وقد تذمر البرهميون أشد التذمر حين أمرت الحكومة الهندية بالغاء « السوتى » وهو آحراق النساء مع أزواجهن

المتوفين ، فلما صدر الأمر بالغائه فى سنة ١٨٢٩ هبت عاصفة من السخط على الحكومة وأمطرها البرهميون شكايات يلتمسون فيها الغاء ذلك القرار ، ويقاس على التشبث بهذه السنة مبلغ التشبث بغيرها مما هو أقل منها نكرا ومجافاة للشعور والعاطفة الانسانية. فكل سنة، بل كل عادة ، فهى قضاء مبرم لا يجوز عليه التبديل أو التخفيف

وقد وهم الكثيرون أن تحريم أكل الحيوان سنة عاطفية لجأ اليها البرهميون رحمة بالحيوان ، ولكن الواقع انها سنة تقليدية نشأت من الايمان بتناسخ الارواح وان الاحياء الدنيا قد تحل فيها أرواح الناس على سبيل العقاب، فأكلها قطع لسلسلة التناسخ ودورة الارواح فى الاجساد من الآزال الى الآباد

فقد يكون الهندى مسامحا برأيه وفكره ، وقد تكون عقيدته فى الله عقيدة مسالمة لاصحابه ومعاشريه ، ولكن المعضلة الكبرى هى هذه العادات التى تدور عليها معيشة كل يوم وترتبط بها المشيئة الأبدية فلا تقبل المسالمة والمسامحة، وتلك هى المعضلة التى يعانيها المخالفون للعقيدة الهندية حين تكون السيطرة عليهم لاصحاب تلك العقيدة ، وحين يكون المرجع كله اليهم فى سلطان الدولة، وهذه المعضلة هى خلاصة الضرورة التى جعلت من الحتم الحاتم أن تنفصل الباكستان ، أو كما قال القائد الاعظم فى تلخيصها : «نحن نأكل البقرة وهم يعبدونها ، فكيف نتفق على نظام واحد»

لهذا ولغيره من الاعتبارات الاقتصادية والجغرافية

والعاطفية أصبحت العقيدة قوام الأمة فى الهند ، وحدث فى الهند ما لم يحدث فى غيرها من قبل وهو تحول الصلة الدينية الى صلة قومية،فقيل فى السيخيين مثلا انهم عقيدة أصبحت أمة ، لانهم أناس من سلالات الهند لا فاصل بينهم وبين سائر أبنائها بغير العقيدة . هذا والنحلة السيخية قد نشأت فى القرن الخامس عشر للميلاد ، فقس على ذلك نشأة الاسلام أو القومية الاسلامية بمقومات كثيرة غير العقيدة ، وهى الثقافة والدولة والآداب الاجتماعية

الاسلام والاستعمار

وكأنما كانت هذه العوامل القوية بحاجة الى مزيد يوسع فوارق الانفصال فوق اتساعها فجاءت سياسة الاستعمار بجملة من هذه الفوارق مقصودة أو غير مقصودة ، اذ كان الاستعمار الانجليزى قد تسلل الى الهند وليس فيها دولة تقاومه أقوى من الدولة الاسلامية ، فوقر فى اخلاد المستعمرين ان الخطر على سيطرتهم انما يتوقع من هذه الناحية قبل غيرها ، وعملوا على اضعاف شوكة المسلمين واقصائهم من الوظائف كبيرها وصغيرها ، وكان المسلمون فى ابان دولتهم قانعين من الحياة العامة بالوظيفة الحكومية ، وذادهم عن الاشتغال بالصيرفة انهم يحرمون الربا ، وعن ملك الارض ان الارض لم تكن مملوكة لأحد ولكنها كانت متروكة للزراع وللجباة الذين يؤدون للحكومة حصتها من الضرائب ، وكان أكثر هؤلاء الجباة من البرهميين المشتغلين ببيع الغلال وتصريفها ، فلما أصدر الانجليز قانونا لتسوية مسائل الارض الزراعية جعلوا هؤلاء الجباة ملاكا وجعلوا

الزراع أجراء فى أرضهم ، واعتمدوا على هذا النظام زمنـا لتحصيل الضرائب ومحاسبة الجباة عليها ، فاجتمع الحرمان من الوظائف وآلحرمان من الارض عـلى اقامة العـزلة بين المسلمين وغيرهم فى الحياة الاجتماعية

وقد كتب لورد « النبرو » Ellenborough مصرحا بهـذا العداء فقال : « ليس فى وسعى أن أغمض عينى عن اليقين بأن هذا العنصر الاسلامى عدو أصيل العـداوة لنا وان سياستنا الحقة ينبغى أن تتجه الى تقريب الهنديين Hindus »

وما لم يكن من عوامل آلتفرقة السياسية صادرا من هذا الشعور فهو مقصـود مدبر لتعزيز السيادة بالتفرقة بين المحكومين : Divide et impera وهى خطة جهر بهـا اللورد الفنستون Elphinstone فى سنة ١٨٥٨ وسبقه الى اعلانها فى المجلة الاسيوية سنة ١٨٢١ كاتب قال بصريح العبـارة : «فرق تسد : هو الشعار الذى ينبغى أن نلتزمه فى ادارتنا الهندية » وتكررت هذه « النصيحة » فى أقوال الرؤسـاء العسكريين ورؤساء الدواوين

□

هذه العوامل جميعا ، ما كان منها طبيعيا وما كان منها مصطنعا بتدبير السياسة ، قد جعلت المسلمين أمة مستقلة تفصلها من الهنديين كل معالم القومية ، وأصبحت الموازنة بين أسباب الانفصال وأسباب الاختلاط عند خروج الانجليز من الهند « عملية حسابية » لا لبس فيها ، فكل صـعوبة جغرافية أو ادارية تحول دون الانفصال فهى أسهل تذليلا

وتمهيدا من صعوبات البقاء فى ظل حكومة واحـدة ، وقد يطول شرح الاسباب اذا توخينا التفصيل والاسـتقصاء ، ولكن القارىء خليق أن يستغنى عنها جميعا بعـرض موجز لسيرة الزعيمين الهنديين اللذين تعاقبا الزعامة منذ جيلين وهما طيلاق وغاندى ٠ فأما طيلاق فكانت دعوته الصريحة تخليص الهند من الواغلين الانجليز والمسلمين على السواء ، وكان برنامجه يقوم على الغـاء اللغة الاردية فى الدواوين ومطالبة الحكومة باباحة الزفات الموسيقية أمام المساجد ، وكانت محرمة بنص القانون

وأما غاندى فقد كان جزاؤه القتل لتسامحه فى معاملة المسلمين ، وكان قاتله من جماعة كثيرة الاشـياع ترى أن الحل الأمثل لمشكلة الاجناس فى الهند هو استئصال تلك الاجناس

لا جرم كان منطق القائد الاعظم الواضح الرصين مرادفا فى معناه ووجهته لشعور الجماهير، فكانت صراحته فى دعوته قوة لها ولم تكن عقبة يحتاج الى تذليلها وتخطيها على سنة الاكثرين من زعماء الجماهير ، وصح القول ان شعور الجماهير فى هذه المعضلة كان أكثر من شعور وأكثر من حكمة عملية، لانه كان كالقابلية المطبوعة التى تستقر فى خصـائص الاجسام

ومن عاداتنا فى الزمن الحديث أن نستريب بدفعة الجماهير وبرامج الساسة ، وأن نعتبرها على أحسن ما تكون أمورا موقوتة وأحوالا حائلة ٠ الا أن هـذا الشعور الذى رددته برامج الساسة فى الباكستان حقيقة علمية يقررها أساتذة

التاريخ من غير المسلمين ، وفى أحدث الكتب عن تطور الهند كتاب للاستاذ « لونيا » Luniya مدرس التاريخ وعلم السياسة بكلية هولكار يبسط فيه علاقة المسلمين بغيرهم فى الهند فيقرر فى غير موضع انهم أمة مستقلة لا اختلاط بينها وبين الأمم البرهمية ، ومنها قوله فى فصل الهند والاسلام : « ان المسلمين أول قوم أغاروا على الهند ولم تستوعبهم طيات القارة الهندية المرنة التى لا تنى تمتد وتنطوى على المغيرين ، وقد أغار قبلهم كثيرون كالاغريق والسيثيين والمغول والمجوس وغيرهم وانطووا فى الغمار بعد أجيال قليلة انطواء تاما بأسمائهم ولغاتهم وعاداتهم وعقائدهم وأزيائهم وآرائهم ، وفنيت جموعهم فى الواقع فى المجتمعات الهندية ، الا المسلمين . فانهم لم يزالوا فى الهند طائفة منفصلة ، ورفضت نياتهم المتشددة فى الوحدانية كل هوادة فى قبول الشرك والأرباب المتعددة ، ومن ثم عاش المسلمون والبرهميون فى أرض واحدة دون أن يمتزجوا ولم تفلح محاولة من المحاولات فى وضع القنطرة على الفجوة ، وما برح المسلمون خلال القرون التالية يولون وجوههم شطر الكعبة فى مكة وينفردون بشريعتهم ونظام ادارتهم ولغتهم وأدبهم وأضرحتهم وأوليائهم »

ومع شهادة المؤلف للمسلمين بالفضل فى تعليم البرهميين مبادىء المساواة قال : « ان احدى النتائج التى نجمت من حكم المسلمين فى الهند ان المجتمع قد انقسم فى عهدهم قسمة رأسية وكان قبل القرن الثالث عشر ينقسم ولكن قسمة غير رأسية ، ولم تستطع البوذية ولا الجينية أن تحدثا

مثل هذا الانقسام لانهما ما عتمتا أن اندمجتا فى المجموع بسهولة وسرعة ، على حين أن الاسلام قد شق المجتمع من الأسفل الى الأعلى شطرين متقابلين : براهمة ومسلمين . فنشأ فى أرض واحدة مجتمعان متوازيان متغايران فى جميع طبقاتهما قل أن تصل بينهما علاقة فى المعيشة أو معاشرة ، واشتدت محافظة البرهميين أمام غيرة الاسلام فى نشر دعوتهم الدينية واندفعوا مع خوفهم وحرصهم على حماية مجتمعهم الى المبالغة فى قيود الطبقات والطوائف وما اليها من القيود الاجتماعية »

ومن العسير أن يقال عن خطة تمليها وقائع التاريخ وبدائه الشعوب غير انها ضرورة لا محيد عنها ولا طاقة بالرجوع فيها ، وان أريد الرجوع

الرواد والآباء

أستاذ الزعماء

من أصدق الاقوال فى تلخيص قضية الباكستان كلمة الزعيم الهندى المعتدل جوكهيل اذ يقول لأبناء قومه تيسيرا لفهم مطالب المسلمين : « انكم لو كنتم فى موضعهم لطلبتم مثل مطالبهم وشعرتم بالحاجة الى ضمان كالضمان الذى يحتاجون اليه »

وجوكهيل هذا هو قدوة الزعماء الهنديين فى السماحة ورحابة الصدر ، وهو أستاذ جناح السياسى فى صباه وقدوته فى مسألة الطوائف والاحزاب ، وكان جناح يقول انه يطمح الى شىء واحد وهو أن يكون جوكهيل من المسلمين

قال جوكهيل كلمته تلك وقد نجمت دعوة الطوائف وتشعب الخلاف عليها فى الربع الاول من القرن العشرين ، وكانت هذه الحقيقة واضحة أمام عينيه وهو ينظر الى مفترق الطريق ، ولكنها ـ قبل أن يفترق الطريقان ـ لم تكن واضحة هذا الوضوح أمام زعماء المسلمين بل أمام أشدهم مغالاة فى طلب الانفصال ، ولا استثناء فى ذلك لزعيم هؤلاء الزعماء وأستاذهم وموحى الفكرة التى نشأ منها المؤتمر الهندى والعصبة الاسلامية على السواء ، وهو « السيد أحمد خان »

كان السيد أحمد خان هو الرائد الاول للباكستان ،



السيد احمد خان

٢ ـ محمد علي جناح

وتلاه أعوآنه وتلاميذه فبدأوا كما بدأ ثم انتهوا كما انتهى : بدأوا يعملون يدا واحدة مع الهنديين على امكان الوحدة ، ثم حاول كل منهم محاولته وانتهى منها بعقله وتدبيره الى حيث انتهت بداهة الجماهير ، فتوافرت للحركة كل قوتها من تلاقى الرؤوس والقلوب على عقيدة قد تمحصت من جميع جوانبها، وانتفى منها كل شك يخالج نفوس القادة أو الأتباع

وكان السيد أحمد خان مثالا عاليا للرجل العظيم الذى يثبت للناس من حين الى حين أن الغيرة الدينية البالغة والشعور الانسانى الأكمل لا يتناقضان بل يمتزجان ويتعاونان ، فلما وقعت الفتنة التى اشتهرت بفتنة العصيان Mutiny أنقذ من الموت كثيرا من الانجليز كما أنقذ كثيرا من الوطنيين ، ولم تحتمل نفسه الكريمة أن يرى انسانا أعزل يفتك به مطاردوه كأنه فريسة ينفرد بها وحوش ضراة

وحفظ له الذين أنقذهم هذا الجميل، ومنهم رجل انجليزى اشتهر بين القوم لانه يسمى باسم الشاعر الكبير وليام شكسبير ، بلغ من وفائه له انه كان يلازمه حيثما استطاع، وملازمته هذه هى التى تجعل لكلمته معناها فى هذا السياق . فانه سمعه زمنا طويلا يتكلم عن تقدم الهند ونهضة الهند وحقوق الهند ، فلما سمعه لأول مرة يذكر تقدم المسلمين ويفردهم بالقول دهش وبدت عليه الدهشة ولم يكتمه سبب دهشته فقال له : « هذه أول مرة أسمعك فيها تتكلم عن المسلمين وحدهم ، وكنت على الدوام تهتم بمصالح أبناء وطنك أجمعين » فأجابه الرجل العظيم الذى اشتهر بصراحته كما اشتهر بحكمته : « اننى اليوم مؤمن

بأن القومين ـ كما وردت الكلمة فى العبارة الاردية ـ لن يخلصا النية فى أمر واحد ، وليس بينهما اليوم عداء مكشوف ، ولكن هذا العداء سينكشف فى المستقبل من جراء من يسمونهم بالطائفة المتعلمة . ومن يعش ير »

قال شكسبير : «انى ليحزننى أن تصدق هذه النبوءة»، فقال السيد أحمد : « واننى أيضا لحزين جد الحزن من أجل هذا ، ولكننى منه على يقين » ... ولم تمض فترة وجيزة حتى تحقق كلاهما ان خلوص النيات فى قضية الوحدة مستحيل

□

كان السيد أحمد خان ماردا من مردة الاصلاح الافذاذ فى كل زمن وكل أمة ، وكانت شخصيته من الرحابة والقوة بحيث تحتمل الكثير من النقائض فى مقاييس الاوساط ، ولم يكن وسطا فى مقياس من تلك المقاييس

كان كما قدمنا غيورا شديد الغيرة على أبناء دينه ،ولكنها غيرة لم تكن تحجب شعوره الانسانى فى أوقات اللدد والشحناء ، كما يحدث أحيانا لاصحاب النفوس الصغار

وكان لفرط غيرته معدودا من المتعصبين فى رأى بعض خصومه ومعارضيه ، ولكنه كان فى رأى المتعصبين متهما بالالحاد والمروق ، وتعرض للقتل مرتين من جراء هذا الاتهام

وكان من سياسته أن يسالم الدولة الحاكمة حتى يرتقى بقومه الى الشأو الذى يمكنهم من ولاية الحكم عند تمام

الاســـتقلال ، ولكنه لم يفهم قط من المســـالمة انها ملق وازدلاف ، بل كانت صراحته تسلكه عند أناس من الحاكمين فى عداد المهيجين ، وقد ترك حفلةالدربار غضبا واحتجاجا على التمييز فى كراسى الجلوس بين الانجليز والوطنيين

وكان ينكر على الانجليز فى وجوههم تعاليهم على الرعية الوطنية ويحذرهم عاقبة هذه الكبرياء،ولكنه كان يكتب الى خاصته وهو فى بلاد الانجليز فيصارحهم فى ألم شــديد معترفا بأن الفارق بين المجتمع الانجليزى والمجتمع الهندى كالفارق بين جماعة من الآدميين وقطيع من العجماوات

ويعجب أصحابه لأمره بين النصح بالتقية السياسـية وبين مجاهرته بكل ما يعتقده مجـاهرة لا تعرف التقيـــة والحيطة ولا ترهب المقاومة والمعارضـــــة ، وكانت الدعـوة الوهابية فى ابانها حين نشط لدعوة الاصلاح ، وكان يأخذ عليها اليبوسة والمبالغة فى التحرج ، فاذا قيل له : ما بالك اذن تنحو نحوهم فى مجابهة الناس بما ينفرون منه وتصر على مجابهتهم وهم نافرون،قال : اذن أنا وهابى الوهابيين، ان كانت الوهابية أن تجهر بما تدين

المارد الحق

والمارد الحق انما يبدو لنا فى جبروته ، بل فى ضخامة جبروته ، اذا عرفنا انه عمـل ونجح فى عمله وأدرك غاية النجاح مع كثرة خصومه وكثرة الآراء التى تعارض رأيه حتى بين أعوانه ومريديه

فاذا مضيت فى استقصاء علاقاته مع من حـوله جزمت انه لم يكن علىوفاق مع أحد : لم يكن علىوفاق مع الانجليز،

ولم يكن على وفاق مع البراهمة ، ولم يكن على وفاق مع المسلمين المحافظين ، ولم يكن على وفاق مع المسلمين المجددين ، ولكنه عمل ونجح فى عمله غاية النجاح الذى يتسنى لأحد فى موقفه ، وكان له أعوان من جميع هؤلاء المخالفين ، طائعين أو كارهين ، أو ليس فيهم كارهون على التحقيق بل مستسلمون يفوضون الأمر ويستسلمون

مرجع ذلك الى الثقة بصدقه واخلاصه ، ولكن لا الى هذه الثقة وحدها ، لان الصادق المخلص فى غير قوة وعزم قد يفلح فلاح فرد ولا يتسنى له أن يفلح فى انتزاع الملايين من جمودهم وتحويلهم عنوة من حال الى حال

مرجع ذلك الى القوة الماردة التى أسلست له قبل كل شىء زمام الثقة بنفسه ، فوثق به كل من تحدث اليه وعمل معه وأيقن بيقينه ، ونظر الرجل الى مهمته الضخمة فوزنها بميزان قوته واخلاصه ، فاذا هى مستطاعةمفهومة محدودة الاهداف ، واذا هو يمضى فيها مضى سالك الطريق المعبد الذلول ، ولو غيره نظر الى ذلك الطريق قبل المضى فيه لأحجم ولم يمض وأحجم وراءه كل من رآه يقدم وينثنى بعد اقدام

خالف الجميع ولكنه جمعهم بغير خلاف على رأى واحد ، وهو رأيهم فى صلاحه وقدرته وانه يعنى ما يقول ويعمل ما يعنيه ، وحسب الاعمال الكبار نجاحا أن يتفق العاملون لها على الايمان بقائدهم فيها ، وان اختلفوا بعدذلك أى اختلاف

وكأنما كان هناك ارتباط بين تاريخ أسرة السيد أحمد خان وتاريخ الحركات الدينية ودعوات الاصلاح فى الهند ،

فوصل أجداده الى دلهى مهاجرين من جزيرة العرب فى إبان دعوة السلطان أكبر الذى حاول التوفيق بين الاديان فأخرج منها جميعا دينا موحدا عرف يومئذ بدين أكبر، ومات بموت صاحبه. وكان جد السيد فى زمرة المعارضين له بامامة شيخ الطريقة النقشبندية وزملائه المعروفين باسم المجددين ، وقد كان شاه غلام على رئيس المجددين صديقا للسيد متقى والد السيد أحمد، ولم يكن للولى الموقر عقب. فكان يقول ان أولاد متقى هم أولاده فى الله والروح ، وشغل نفسه بتعليم الطفل كتابة اللغة العربية وتلقينه بعض الاحكام والفروض

وينمى السيد أحمد من ناحية أمه الى الخوجة فريدالدين أعلم أهل زمانه بين المسلمين بالعلوم الرياضية والعقلية وصاحب الكفاية الملحوظة التى جعلت « هاستنج » يندبه لنظارة الكلية التى أنشأها لتعليم الوطنيين وجعلت ولاة الأمر من انجليز وهنديين يندبونه لمهام الوزارة والسفارة فى ايران وبرما ، وقد سمع به أكبر شاه الثانى فعهد اليه بوزارة القصر والخزانة ، وكان نظامه الدقيق فى الشؤون المالية سببا للحنق عليه

ويعزى الى هذا العلامة أكبر الأثر فى تنشئته حفيده على النشأة العقلية والحياة العصرية ، اذ كان أبوه منقطعا عن الدنيا فى نسكه ومصاحبته للأولياء فكانت أمه تعيش أشهرا متواليات فى بيت أبيها ومعها الصبى اليقظ المتنبه لكل ما يراه حوله ويسمعه من أحاديث جده العظيم

وأول أثر من آثار هذه التربية أن الصبى لم ينهج نهج أسرته من ناحية أبيه فى مقاطعة الوظائف أو مقاطعة كل

ما له علاقة بالحكومة ، فلما مات أبوه (١٨٣٦) وهو يناهز التاسعة عشرة قبل التوظف فى المحاكم وانتقل من الاعمال الكتابية الى أعمال القضاء فى بضع سنوات ، ونشبت الثورة وهو يتولى القضاء بمدينة بجنور فكان مسلكه مع أبناء قومه ومع الانجليز والبرهميين أول شهادة له عند الاقربين والغرباء برجاحة العقل وسماحة الطبع وعلو الهمة، وأول مناسبة وضعت مشكلة الهند بجميع أجناسها وأقوامها فى موضعها الصحيح

خرج الانجليز من تلك الفتنة الطاحنة حائرين فى تفسير بواعثها يعتقدون انهم مضللون ولا يعرفون كيف يهتدون ، وجعلتهم تلك الحيرة مستعدين للاصغاء الى كل نصيحة فلم يجدوا أمامهم أقدر على النصيحة وأشجع على ابدائها من القاضى الجرىء الخبير ، فأما العقلاء منهم فقد لمسوا الصدق فى بيانه لبواعث الفتنة ووسائل علاجها ، وأما المتهورون منهم فقد حسبوه من دعاة الهياج الذين يبذرون بين الأمة الهندية بذور الفتنة من جديد ، وكانت خلاصة رأيه ان الادارة الانجليزية هى المسئولة عن تذمر المحكومين لانها تحكمهم بغير مشاركة منهم فى الرأى وعلى غير علم بما يساورهم من شعور ، وتغلبت الحكمة على التهور فأخذت الحكومة البريطانية بمشورته وعولت على تنحية الشركة التى كانت تنفرد بحكم البلاد الى ذلك الحين ، وأن تقيم الحكم على أساس الشورى والتدرج فى التمثيل النيابى واشراك المتعلمين من الوطنيين فى مجالس الحكام ، وهى مجالس شورية كادت أن تنحصر فى الانجليز ، ولم تكن لاعضائها

معرفة بمطالب القوم ولا اطلاع على شـــكاواهم ومظالمهم ، لترفعهم عن معاشرة أبناء البلاد

الاستعمار يحارب المسلمين

وولدت على أعقاب الثـورة فكرة المؤتمر الوطنى فبرزت مع الفكرة مشكلات التمثيل النيابى والحكومة الوطنيـــة ، وجعلت هذه المشكلات تتفاقم كلما تدرج الوطنيـــون فى مطالب الحكم الذاتى والاستقلال بالادارة والسياسة

برزت مشكلات الحكومة الوطنية وأولها حرمان المسلمين من الحكم بتدبير السياسة البريطانية، أو من جراء هذه السياسة حين يكون الحرمان نتيجة غير مقصودة لوقائع الاحوال بعد دخول الهند فى حوزة الدولة البريطانية

كان المسلمون حكاما فأخذ الانجليز منهم وظائف الحكومة الكبرى ، وحذروهم فى الوظائف الصغيرة فأكثروا فيها من البراهمة والبوذيين وسائر الهنـديين ، وأخلوها أو كادوا يخلونها من المسلمين

وكان بين المسلمين أصحاب ضياع واسعة فانتزعهـا المرابون وأتى قانون تسوية الارض على بقيتها وأسلمها الى الجباة كما تقدم أو الى الزراع الصغار

وكانت الثقافة الفارسية هى ثقافة المسلمين ، فجـاءت المدارس الاوربية الحديثة ولم يقبل عليها المسلمون لانهـا كانت على الأكثر فى أيدى المبشرين والمتفرنجين

وقد وصف هذه الحالة انجليزى منصف هو الدكتـــور وليام هنتر فقال عن أسر المسلمين من كبار الزراع : « لو أراد سياسى أن يثير ضجة فى مجلس النواب لما احتـاج الى

أكثر من سرد صادق لقصة هذه الأسر فى البنغال »

ثم استطرد الى الوظائف فقال ان القيادة العليا التى كانت من وظائف المسلمين قد نزعت بطبيعة الحال من جميع الهنود : « أما الوظائف الاخرى فكانت مشغولة هكذا فى سنة ١٨٦٩ ... أربع عشرة وظيفة من وظائف المهندسين بدرجاتها الثلاث يشغلها الهنديون وليس معهم مسلم واحد ، وكان بين المهندسين تحت التمرين أربعة هنديون وانجليزيان وليس معهم مسلم واحد ، وكان بين وكلاء المهندسين أربعة وعشرون هنديا ومسلم واحد، وبين المشرفين مسلمان وثلاثة وستون هنديا ، ولم يكن فى ادارة الحسابات مسلم واحد مع موظفيه الهنديين وعدتهم خمسون ، وكذلك لم يكن فى ديوان الرؤساء الثانويين مسلم واحد مع اثنين وعشرين من الهنديين »

وهذه النسبة هى التى أحصاها الدكتور هنتر فى البنغال وهى نسبة نموذجية يقاس عليها فى سائر الاقاليم ، ومنها ما هو أسوأ حالا بالنسبة للموظفين وأصحاب الارض المسلمين من ذلك الاقليم

نظر السيد أحمد خان الى هذه الحالة وعرف من حقائقها ما لم يعرفه الدكتور هنتر ولا غيره من الانجليز ، لان صاحب الدار كما يقال أدرى بالذى فيها ، فأدرك عاقبة الحكم النيابى الذى تتولاه كثرة الناخبين ، وعلم أنه حكم لا نصيب فيه للنواب ولا للموظفين ولا للساسة من المسلمين

ومما زاد هذا الرأى اختمارا فى نفسه قيام الدعوة القومية الهندية على أساس محاربة الانجليز والمسلمين على السواء

بغير مواربة ولا مجاملة ، فقد بدأت هذه الدعوة بعد حركة الفتنة وظهر أنها تنتشر ولا تنحسر كما كان مرجوا فى أول عهدها ، اذ كان أناس من المتفائلين يحسبون أنها رد فعل للفتنة لا يلبث أن يستقر على قرار ثابت من الهوادة والاعتدال ، وقد كان السيد أحمد خان أبعد منهم نظرا وأعرف منهم بالحقائق فتشاءم من الحركة منذ نشأتها ، وحققت الايام ظنه فلم يوجد فى المؤتمر الوطنى على عهد الزعيم طيلاق أكبر المجاهرين بالعصبية الهندية أكثر من سبعة عشر عضوا بين سبعمائة وخمسة وستين (سنة ١٩٠٥)

رجل عمل

وفضل الزعيم الكبير انه كان رجل عمل ولم يكن رجل شكوى وانتقاد وكفى . فأول ما عمله لاصلاح هذه الحالة السيئة انه أسس كلية «عليجرة» على النظام الحديث للتعليم العالى والدراسات الجامعية ، وهذه الكلية هى التى أنجبت قادة الأمة الاسلامية فى الهند الا العدد القليل ممن حافظوا على التعلم فى المدارس الدينية ، ومن مصائب الدنيا ان هذا العمل الجليل الذى عرفت آثاره اليوم كان مثار السخط على الرجل بين الجامدين أنصار القديم ، فأشاعوا بين أتباعهم ان السيد أحمد خان صنيعة للانجليز وانه زنديق يريد تكفير شبان المسلمين ويبيع ضميره فى سبيل الوظائف والزلفى عند ولاة الأمور ، ولم يغنه مع هؤلاء الجهلاء ما هو معلوم من رفضه كل منحة مالية تبرع بها الانجليز لمكافأته على أثر الفتنة ، وقد كان يرفض تلك المنح مع ضيق الحال

به يومئذ حتى هم بالهجرة الى مصر كما قال فى خطاب وصف به عواقب الفتنة وسوء منقلب المسلمين بعدها

الا أن قلبه الكبير لم يستسلم قط لليأس فى أحرج الاوقات ، فمضى فى تأسيس الكلية ، وجعل شعاره فى الاصلاح الاجتماعى كلمة واحدة كررها ثلاث مرآت وهى : « علم . ثم علم . ثم علم » ودع كل شىء بعد ذلك لما يثمره التعليم

أما فى ميدان السياسة فقد أعلن رأيه منذ سنة ١٨٨٣ عند الكلام على المجالس المحلية فقال فى خطاب صراح : « ان نظام التمثيل بالانتخاب يعنى تمثيل مصالح الكثرة وآراءها، وهو خير الانظمة ولا ريب حيث يكون السكان من جنس واحد وعقيدة واحدة . ولكنه ... فى بلاد كالهند حيث فواصل الدين على أشدها ، وحيث التعليم لم يجر على سواء بين طوائف السكان ، يقترن بأضرار جمة لا تنحصر فى الشؤون الاقتصادية ... وما دامت فوارق الجنس والعقيدة وحواجز الطبقة تعمل عملها الخطير فى حياة الهند الاجتماعية السياسية ، وتسيطر على سكانها فى المسائل التى ترتبط بالادارة والثروة ... فليس من المستطاع الاعتماد على النظام الانتخابى بمأمن من العواقب ، لان الطائفة الكبرى ستغمر الطائفة الصغرى ، ويذهب الجمهور الجاهل مذاهب فى اعتبار الحكومة مسئولة عن كل تصرف من شأنه أن يزيد مشكلات الجنس والعقيدة شدة على شدة .. »

عاش السيد أحمد بعد أن أعلن هذا الرأى خمس عشرة سنة ، لم يحدث فى خلالها ما يحمله على تغيير رأيه أو

تعديله، بل كان كل ما حدث فى هذه الفترة مضاعفا لمخاوفه مؤيدا لاعتقاده ، فراجت فى الهند الشمالية دعوة « آريا سماج » وأعلن الزعيم البرهمى طيلاق دعوة « شيفاجى » التى تنادى بتخليص الهند من الانجليز والمسلمين الاجانب، وتعتبر المسلمين جميعا « ميلاش » أى دخلاء ، وتصايح من هنا وهناك بعض الدعاة بابطال اللغة الاردية وحذف الكلمات الفارسية والعربية التى دخلت فى اللغة الهندية ، ومات الزعيم الكبير وهو أشد ما يكون يقينا بأن قضية الهند لا تحل الا على قاعدة واحدة ، وهى اعتبارها قضية قومين أو أمتين

طريق النصر

ولمن يشاء على نحو من أنحاء التعبير أن يقول ان الزعيم البرهمى طيلاق كان شريكا قويا لأحمد خان فى تدعيم بناء الباكستان ، وان تحريضه فى هذا الباب كان أقوى من حض الزعيم المسلم مع اختلاف المقصد والواسطة ، فما من أحد من رواد الباكستان عمل على اقناع المسلمين بضرورة الانفصال كما عمل طيلاق ، ولا نحسب أن هذه الخطة كانت طيشا من الرجل أو جهلا منه بالعواقب ، ولكنه على الأرجح علم أن النزعة الوطنية وحدها لا تكفى لتنبيه أبناء قومه وايقاظ نخوتهم فعمد الى نزعة تستثار بها القوة فى طبائعهم وهى نزعة العقيدة التى تمتزج بعاداتهم وموروثاتهم وأحوال معيشتهم ، وتعمد أن يلهبها ويستفز النفوس من جانبها غير جاهل بالعواقب أو مندفع مع الطيش والرعونة ، فهجم وهو يقصد الهجوم ويحسب انه دون غيره طريق النصر المرسوم

على أن السيد أحمد خان قد أثبت فى حياته وبعد مماته أنه كان بحق مربى قادة ومربى أمم ، فانه أخرج من مدرسته تلاميذ يستقلون بالرأى ولا ينقادون ليقين أستاذهم انقياد المقلد المتبع الذى يمشى وراء دليله مغمض العينين ، فما من واحد من خريجى عليجرة أو مريديه المقربين الا وقد اجتهد فى قضية الوحدة اجتهاده وعالج ما استطاع أن يوحد أقوامه وبلاده ، وما من واحد منهم قد بدأ من حيث انتهى الزعيم الكبير ، بل عاد كل منهم الى أول الطريق يبدأها حيث قدر أنه واصل الى الغاية التى التوت على زعيمه ، ونهج كل منهم نهجه غير مقلد لزعيمه ولا مقلد لعامل آخر من زملائه وأبناء مدرسته

كان بحق مربى قادة ومربى أمم ، وصدقت فراسته حين لخص القيادة النافعة كلها فى كلمة واحدة : وهى « علم ثم علم ثم علم » ... وليست هناك قيادة لا تضل بصاحبها أقوم من قيادة التعليم

أما تربيته الأمم فقد ظهرت فى بعثه الحياة بين قومه فى زمرة أنصاره وخصومه، وقد عيب عليه بلسان أقرب المقربين اليه انه كان مفرطا فى الصراحة عنيدا فى الحق صلبا فى مقارعة المعارضين بالحجة الواضحة وان كانت مؤلمة جارحة، ولكن هذه الصراحة التى لا تعرف المواربة هى التى ابتعثت القوة والثقة فى معسكره ومعسكر خصومه ، فمات والمعسكران معا فى حركة دائمة واستعداد متجدد ، واستفادت أفكاره ممن أيدوها وممن فندوها على السواء ، وكان كل تلميذ له يعمل وكل معارض له يعمل ، وكل عمل

يثمر بعض الثمرة ويغرس من ثمرته شجرة نامية وارفة الظلال

الشاعر « الطاف »

من مريديه الذين والاهم بعطفه وتأييده الشاعر ألطاف حسين « حالى » الملقب بشمس العلماء ، وقد فطن السيد لعبقريته وعلم فضل الشعر فى تربية الاقوام الناهضة فاقترح عليه أن ينظم ملحمة شعرية مطولة فى تقدم الاسلام وتأخره ، فنظمها وأهداها الى كلية عليجرة وعرفت باسم المسدسات واستظهرها كثير من شبان عصره وشيوخه ، وكان « الحالى » صوفيا على مذهب محيى الدين بن عربى فى حب جميع الناس ومصافاة جميع الأمم ، يقول كما قال محيى الدين :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وايمانى

بل كان فضل النبى الأكبر كما قال فى ختام قصيده «آنه صديق كل نفس انسانية ، عطوف على القريب والبعيد ، سواء عنده المكى والزنجى والشامى ، غفور للمسىء، يسدى الخير حتى الى فاعلى الشرور »

وكانت له قصيدة فى الوطنية يقول فيها : « ان أردت خيرا لوطنك فلا تنظر الى أحد من أبنائه نظرة الغريب ، سيان المسلم والهندستانى ، والبوذى والبرهمى ، فارعهم جميعا بعين الحب وسو بينهم كما تسوى بين انسانى عينيك»

وفى احدى مسدساته يقول عن القرآن : « أول ما نتعلمه من كتاب الهدى أن الناس جميعا أسرة الله ، وانه لا يحب الله الا من يحب خليقته ، ذلك هو الاخلاص الحق وتلك هى

العقيدة والايمان ، أن يكون الانسان فى عون الانسان »

وفى مقطوعة أخرى يقول : « دع الشحناء مع من يدين بغير دينك ٠٠٠ وأحجم عن الأذى وقابل الأذى بالاحسان، وليأت بعد ذلك من يقول ان الدنيا جهنم فلينظر الى هـذا الفردوس »

وقد عمل الشاعر على التقريب بين الأمتين بالتقريب بين اللغتين ، فنظم مقاطيع من الشـعر فى لغة يفهمها المتكلمون بالاردية والمتكلمون بالهندسـتانية وقيـل ان غاندى قرأ قصيدته « شكوى الأيم » فقال : « لو تكلم أهل الهند يوما بلغة واحدة فبهذه اللغة يتكلمون » وكتب فى مقدمة ديوانه ان المسلمين يحسنون صنعا لو استغنوا عن الكلمات الغامضة من العربية والفارسية ، وان الهندستانيين خلقاء أن يتعلموا الاردية لانها هندستانية متطورة

وهذا مثل من العاطفة الدينية الصوفية التى كان شعراء الاسلام من بيئة السيد أحمد يواجهون بها قضية الوحدة

واذا كان «الحالى» قد واجه قضية الوحدة بالروح الصوفية فقدواجهها الاخوان محمد على وشوكت على بالروح الرياضية، وأيد محمد على حركة المقاطعة التى قام بها غاندى بفتـوى دينية تحرم على المسلمين خـدمة الشرطة والجيش ، ونادى بأن سياسة أستاذه السيد أحمد التى تقوم على محاسـنة الدولة البريطانية قد انقضى عهدها ووجب على العاملين فى سياسة الهند أن يحاربوا تلك الدولة بكل ما يستطيعون ، ثم انتهى الأمر بعودته الى رأى أستاذه فى قضية الوحدة ، فقال فى المؤتمر الاسلامى قبل مقتل غاندى بأكثر من ربع

قون : « اننا نعارض غاندى لان حركته ليست بالحركة التى ترمى الى استقلال الهند كلها ، وانما هى حركة يراد بها أن يظل السبعون مليونا من المسلمين عالة على جماعة المهاسبها» ... وهى الجماعة المتطرفة التى جاهرت غير مرة بأن الحل السريع لمشكلة الهند هو استئصال من فيها من المسلمين

الشاعر اقبال

ومن تلاميذ السيد أحمد رواد الباكستان الشاعر محمد اقبال الذى اشتهر باسم شاعر الاسلام،فقد كان أبناء قومه يسلكونه بين غلاة الوطنيين «الناشوناليست» طلاب الوحدة فما زال مع الزمن حتى آمن باستحالة الوحدة ودعى مرة الى محفل « منيرفا » المشترك بين أبناء جميع الأديان والأقوام فكتب الى الداعين (فى سنة ١٩٠٩) يقول : « لقد كنت أرى وأعتقد أن الخلافات الدينية ينبغى أن تمحى فى هـذه البلاد ، ولا أزال أعمل لذلك فى حياتى الخاصـة ، ولكننى أجد اليوم أن محافظة كل من الأمتين على كيـانها مطلوب بين المسلمين والهندستانيين ، وان الوطن الموحد فى الهند لمن الاحلام الجميلة التى تروق الأمزجة الشعرية ، ولكنه عند النظر الى الاحوال الحاضرة والنزعات الباطنة فىضمائر الأمتين يبدو غير قابل للتحقيق »

وقد تخـرج من عليجرة وغيرها رواد كثـيرون لفكرة الباكستان ، كلهم اجتهدوا فى الوحـدة وكلهم آمنـوا باستحالتها ، ولعل صـاحب الترجمة ــ القائد الأعظم ــ كان آخر من بقى على أمل الوحدة بين أولئك الرواد ، وهذه هى العبرة ذات الدلالة الكبرى فى هذا الباب

الا أن حـركات الجمـاهير أعمق فى الدلالة على ضرورة الباكستان من هـذا التطور فى آراء القادة والزعماء ، وقد أسلفنا أن الجماهير ألهمت بالفطرة ما قرره القادة والزعماء بالروية والاستقراء بعد طول العناء ، ولكننا لا نقصدبذلك أن الجمـاهير قد اندفعت فى وجهتها اندفاعا لا علة له ولا تردد فى مقدماته ودواعيه · اذ الواقع أن علة هذا الاتجاه فىالجماهير أوضح من علل التطور فىعقولقادتها وزعمائها، وانما الفرق بينها وبينهم فى اتجاهها انهـا تنقاد للسبب المعقول ولا تعلم أنه سببانقيادها ، ولكنه سبب معقول على كل حال

العصبة الاسلامية

فلما أسست العصبة الاسـلامية (سنة ١٩٠٦) كان تأسيسها تلبية لشكوى المسلمين فى الاقاليم التى هم قلة ضئيلة فيها الى جانبالهندستانيين أو البرهميينوالبوذيين، ولم يقبل عليها المسلمون الذين هم كثرة فى أقاليمهم الا بعد فترة غير قصيرة ، وكانت جماعة «المهاسبها» التى تقدم ذكرها هى الحافز لهم على الاعتصـام بالعصبة والاحتراس من عاقبة الاندماج فى وطن واحد يسمع فيه صوت هـذه الجماعة بين أقوى الأصوات الغالبة على نفوس جماهيره

فالقلة الهندسـتانية فى الاقاليم الاسـلامية تمادت فى تعصبها الذميم الى أقصى حـدوده ، وثبت من احصـاءات الاشـتراك فى العصبة الاسلامية انها لم تنتشر بين تلك الاقاليم عند تأسيس العصبة ، ولكنها بلغت غاية الانتشار بعد ثورة « المهاسبها » وتوقح كتابها وخطبائها علىمقدسات

الدين الاسلامى ومنها كرامة نبيه عليه السلام ، وجعلت مكانة العصبة بين أهل تلك الاقاليم تتوطد وتستقر كلما تجاوبت أرجاء الهند بتلبية « الدعاية » الهوجاء التى انتهت بمقتل « المهاتما » الهندى ، لانه أنكر على الجماعة تعصبها الذميم

وأعمق من حركات الجماهير الاسلامية وأطوار القادة والزعماء فى الدلالة على استحالة الوحدة أن المنبوذين أنفسهم ـ وهم من أعرق السكان فى الهند ـ قد اتخذوا مع حزب المؤتمر موقفا كموقف العصبة الاسلامية بل أشد لددا فى الخصومة ، وأعلن زعيمهم الدكتور (امبدكار) ان عناية غاندى بالمنبوذين انما هى عناية يريد بها أن تستقل الهند خالصة لقومه ، وأن قومه بالنسبة الى المنبوذين كالاوربيين بلا خلاف ، وأصر الدكتور امبدكار على هذا الموقف بعد الوصايا المتكررة من غاندى بانصاف المنبوذين وتسميتهم باسم الهاريجان أى أبناء الله ، وقد يمهد له العذر فى اصراره ان وزارة المؤتمر بمدراس ـ وهى وزارة يؤيدها ستة وعشرون من النواب المنبوذين ـ رفضت قرارا اقترحه الزعيم « راجاه » يبيح للمنبوذين دخول المعابد الهندية ، ولولا أن هؤلاء المنبوذين لا تضمهم فى الهند أماكن قابلة للاستقلال ، وانهم هم أنفسهم مستسلمون لقسمتهم لانها جزء من عقيدتهم ، لوجدت فى الهند دولة منبوذة مستقلة يسكنها أربعون مليونا أو يزيدون

العالم الإسلامي

العالم الاسلامى

كانت الحركات آلتى تجاوبت بها أرجاء العالم الاسلامى خلال القرن التاسع عشر عاملا فى توجيه قضية الباكستان الى الوجهة التى تدرجت فى الاتجاه اليها حتى استقرت عند منتصف القرن العشرين على وضعها الأخير

وكانت حوادث العالم الاسلامى خارج الهند لا تقل عن حوادث الهند الداخليــــة فى تحويل أنظار مسلميها رويدا رويدا الى ضرورة الاستقلال بحكومة منفصلة ، وهى حكومة الدولة التى عرفت الآن باسم دولة الباكستان

وكانت الحوادث الخارجية والداخلية معا ترسم مصــير القضية وتقرره وتقيم له حدوده ، حتى أصبح ذلك المصير كما قدمنا حلا مفروغا منه متفقا عليه بين القادة والجماهير ، فلا حاجة به الى تلك آلمؤثرات البلاغية أو السياســية التى يلجأ اليها القادة كثيرا لاقناع أتباعهم بما هم مقتنعون به ، ولكنهم يستجيشون لها شعور الجماعات تهيئة لقبوله عـلى النحو الذى تتهيأ له نفوس الجماعات

وكان القرن التاسع عشر منذ أوله فترة قلق شديد فى بلاد العالم الاسلامى من أقصى أطرافها الى أقصاها، وتلاحقت فيه الدعوات بغير انقطاع فى كل أمة على النهج الذى يناسبها، فلم يخل بلد واحد فى العــــالم الاسلامى من دعوة أو من

حركة أو من ثورة ، وكلها تطلب التغيير ولا ترضى بالواقع الذى صارت اليه

وتجتمع تلك الدعوات جميعا فى خصلة واحدة على تباين أشكالها وغاياتها ، وهى أنها جميعا كانت « رد فعل » سريع لطغيان الاستعمار الاوربى على الاقطار الشرقية ، وقد ذهبت حملات الاستعمار حينا باستقلال أمم وأضعفت أحيانا كيان الأمم التى بقيت مستقلة ، وكشفت لهذه وتلك عن سوء حال لا قرار عليه

ووقع فى النفوس حيث اصطدم المسلمون بسلطان الدول المستعمرة انهم أصيبوا بما أصيبوا به من جراء الفساد والفسوق والانحراف عن أحكام الدين ، فلو عملوا باحكام دينهم لما اصطلحت عليهم عوامل الضعف ولا نزل بهم ذلك العقاب جزاء وفاقا من الله

وتحركت كل أمة على النحو الذى يناسبها لعلاج هذا الضعف وتجديد قوة الدين ، فقامت فى بعض الأمم دعوات تحارب الترف وتنكر كل بدعة من بدع الحضارة الحديثة ، وقامت فى بعضها دعوات توفق بين قواعد الدين وفرائضه وبين العلوم العصرية والمطالب الدنيوية ، وراجت فى الأمم جميعا دعوات التطهير والاعتصام من الفتنة بعبادة الله على طريقة من الطرق الصوفية ، وظهر فى البلاد التى يعتقد أبناؤها برجعة الامام المنتظر كثير من أدعياء الامامة والهداية الذين يبشرون بمذاهبهم تارة على سنة القديم وتارة على سنة لهم يبتدعونها ويجتهدون بها فى استئناف قوة الاسلام على نمط يخالف الاجماع

من هذه الدعوات دعوة محمد بن عبد الوهاب فى نجد ، ودعوة الباب والبهاء فى فارس ، ودعوةالقاديانى فى الهند، ودعوة السنوسى فى المغرب ، ودعوة محمد أحمد المهدى فى السودان ، ودعوة جمال الدين الافغانى وتلاميذه فى كل بلد وصل اليه بشخصه أو برسالته • ومن هـذه البلاد فارس والهند ومصر والعراق وتركيا ، وأطراف من المغرب الاقصى والمشرق الاقصى الى تخوم التركستان والصين

أثر الدعوات الدينية

كل دعوة من هذه الدعوات كان لها أثرها المباشر فى البلاد الهندية ، فأقبل المسلمون بالالوف على دعوة ابن عبد الوهاب ، وقام شريعة الله بنشر الطريقة «الفرائضية» التى يدل اسمها على غايتها وهي ايجاب الفرائض والعمل بنصوص الشريعة ، وتنسب الى هذه الطريقة وسائرالطرق التى أخذت بالدعوة الوهابية ثورة المسلمين فى الحركةالتى اشترك فيها أهل الهند سنة ١٨٥٧ وسميت بحركة « العصيان » وكانت لها عند « البراهمة » أسبابها الدينية أيضا لانهم اعتقدوا أن الانجليز سيرغمونهم على استباحة بعض المحرمات

وقد كان ترديد الهند للدعوة الوهابية أمرا مفهوما يسير التعليل لقدم العلاقة بين الجزيرة العربية وشواطىء الهند الشرقية ، ولكثرة الحجاج من مسلمى الهند فى كل سنة ، ولانتشار أخبار القتال بين الوهابيين وغيرهم فىأنحاء البلاد الاسيوية ، ولاسيما الاسلامية منها ، كبلاد الملايا وبلاد الافغان

أما العجيب حقا فهو انتشــار أخبار الثورة المهدية فى السودان بين الأمم الاسيوية وتحفز القبائل للثــورة على حدود الافغان ، حتى توجس الانجليز واهتموا باســتطلاع آراء العظماء من المسلمين عن حقيقة الرسالة المهدية وحض الفقهاء والعلماء على اصدار الفتاوى التى يبينون بها نصيب تلك الرسالة من الصحة أو من الموافقة للعقائد الاسلامية

لكن الحالة النفسية التى كان عليها مسلمو الهند فى تلك الآونة تفسر هــذه العجيبة وتجعلها من مألوفات كل يوم بالقياس الى تلك الحالة النفسية ، فان العقيدة الدينية حلت فى نفس الهنود ـ من المسلمين وغير المسلمين ـ محل الغيرة الوطنية ، وجاءت غاشية الحزن التى غمرت نفوس المسلمين خاصة بعد زوال دولتهم وانكسار شــوكتهم فأضافت الى عقيدة الدين قوة على قوة ، واشتد بهم السخط مع الاضطهاد المتعمد والحرمان المدبر فتطلعوا الى أبواب الأمل من كل فج قريب أو بعيد ، وأصبحت حوادث السودان عندهم كأنها من حوادث الحدود

ولم يزل هؤلاء المسلمون يسمعون فى بلادهم وفى البلاد التى يرحلون اليها حجاجا أو تجارا أو زوارا أن الطمع فى استعمار الهند هو سبب البلاء الذى أصــاب أمم الشرق جميعا ولا يزال يصيبها ويعرضها واحدة بعد أخرى لضياع الاستقلال وكساد الحال ، فوقر فى النفوس أنهم مسئولون قبل غيرهم عن محنة العالم الاسلامى بأسره ، وان غـيرهم من أمم العالم الاسلامى حقيقون منهم بالعطف على الأقل ان لم يكن لها منهم عون بالعمل أو بالمقال

وليس من محض المصادفة أن يكون أعظم دعاة النهضة الاسلامية فى أواسط القرن التاسع عشر ـ جمال الدين الافغانى ـ متاخما للهند فى نشأته ، ومتطلعا الى الهند أول ما تطلع لنشر دعوته ، وهناك قال لهم قولته المشهورة : « لو كنتم يا أبناء الهند ضفادع بعدتكم من الملايين ثم أردتم أن تزيلوا الجزيرة البريطانية من موقعها فى البحر لزحزحتموها عنه وقذفتم بها الى قراره »

مسألة الخلافة

الا أن المسألة التى تضاءلت الى جانبها كل مسألة من مسائل العالم الاسلامى فى حساب مسلمى الهند هى مسألة الخلافة الاسلامية، وكانت يومئذ فى آل عثمان بالقسطنطينية

فقد كان أمراء الهند أنفسهم يستقبلون تلك الخلافة فى الشدائد وينظرون اليها نظرتهم الى الثمالة الباقية من عز الاسلام ودولته الدنيوية

ومنذ عهد الاحتلال البريطانى توجهت الانظار الى سلطان آل عثمان وكان فى طليعة المتوجهين اليه سلطان ميسور على مقربة من سلطنة حيدر أباد ، فانه كتب الى « الخليفة » يبلغه حقيقة الخطر على الديار الاسيوية وينذره أن الخطر بالغ من غربها لا محالة الى حوزة القسطنطينية ، ولم يكن فى وسع الخليقة أن ينجده بالعون الذى أراده فكتب الى نابليون يطلب هذا العون وجاءه الجواب منه بانتظار المدد فى جيش جرار يضرب الدولة البريطانية فى مقتلها ويخلى الطريق الى الهند من شباكها

ولم يزل أمراء الهند ـ فضلا عن سواد أهلها ـ يتطلعون

الى الخـلافة فى القسطنطينية حتى زالت وانتهت بخاتم الخلفاء السلطان عبد المجيد ، فسعى سلطان حيدر أباد الى التزوج من احدى بناته وقيل فيما قيل عن أسباب هـذا الزواج انه « زواج سياسى » يمهد به السلطان الى امامة المسلمين فى الهند على الأقل ، ان لم تنعقد له الامامة على العالم الاسلامى بأجمعه

ولم يتفق لمسلمى الهند ما يضعف مكانة الخلافة بينهم كما اتفق للمسلمين الذين حكمتهم الدولة العثمانية فتمردوا على حكمها وتغلبت فى نفوسهم دفعة الوطنية على الولاء لحكومة ساءت سياستها وخرجت فى رأى الاكثرين من أحكام دينها ، بل كان مسلمو الهند يزدادون عطفا على دولة الخلافة كلما اشتدت بها المحن من داخلها وخارجها ، وينسبون الثورات عليها أحيانا الى دسائس الاستعمار وغواية الدول الاجنبية بالرشاوى والوعود الكاذبة

ودام الحال على هـذا الى أن كانت الحرب العالمية الأولى ووقع ما وقع من الاصطدام بين تركيا وبريطانيا العظمى فى مصر والعراق مباشرة ، وفى الاقطار الاخرى من طريق الدعوة أو تحريض الامارات الوطنية بجزيرة العرب، طموحا الى اقامة دولة عربية واحدة تضم اليها الأمم العربية التى كانت خاضعة لسلطان بنى عثمان

وعمد ساسة الانجليز الى تهوين الأمر على مسلمى الهند تارة بقولهم ان الحملة على تركيا انما هى حملة على جماعة تركيا الفتاة الذين اغتصبوا سلطان الخليفة وجعلوا الخلافة ألعوبة فى أيديهم وتبرأوا من العصبة الاسلامية تمييزا

عليها للعصبة الطورانية ، فدفعوا العـــرب بذلك دفعا الى احياء العصبة العربية بزعامة أمير من سلالة بيت الرسول ، وتارة يهونون الأمر على مسلمى الهند بتوكيد العهود لهم ان بريطانيـــا العظمى لن تمس دولة الخلافة ولن تســـمح بتقسيمها فى معاهدات الصلح بين الطامعين فيها

فلما انعقدت معاهدات الصلح خابت آمال مسلمى الهند فى وعود الدولة البريطانية وأيقنوا أنهم خدعوا وسيقوا الى معونتها فى هدم دولة الخلافة وتمزيق أشلائها ، وأعلن زعماء المسلمين ـ تلاميذ أحمد خان ـ ان مسالمة الحكومة البريطانية فى الهند سياسة قد انقضى أوانها ووجب نقضها ، لان هذه الحكومة قد أخلفت وعودها للمسلمين وللبرهميين فى الشؤون الدينية والسياسية ، وانتهز غاندى الفرصة الســـانحة فجعل مسألة الخلافة من المسائل الأولى فى برنامج المؤتمر ، وراح مع الأخوين محمد على وشوكت على يجوبون أنحـــاء الهند شاهرين الحرب على الحكومة معلنين الاتحاد بين جميع الهنود على حربها ورفض التعاون معها

ويدل على مدى القلق الذى دهم نفوس المسلمين فى الهند من جراء السياسة البريطانية مع الدولة العثمانية أن ألوفا من مسلمى الحدود هجروا بلادهم وقصدوا الى بلاد الافغان ليعيشوا فى ظل حكومتها الاسلامية ، وان مولانا محمد على قصد الى تركيا وفلسطين ومصر ليجمع كلمة الترك والعرب على استبقاء الخلافة والاتفاق على تأسيس « دولة اتحادية » تضم اليها طلاب الاستقلال فى غير سيادة لقوم من الاقوام على قوم آخرين

وبينما الهند تغلى مراجلها بالثـــورة والمقاومة السلبية تارة والمقاومة الايجابية تارة أخرى اذا بمصطفى كمال يلغى الخلافة وينفى خاتم الخلفاء العثمانيين من القسطنطينية

أمن المصادفة ما حدث بعد هذا أم من تلاحق الاســباب الكثيرة وتلاقيها فى وقت واحد غير منظور قبل ذلك ؟

قد يكون هذا وذاك تعبيرين مختلفين لمعنى واحد،فليست المصادفة الا أسبابا مجهولة أو غير مستقصاة الى نهـايتها ، ولكننـا على كل حال لا ننوى أن نرجح قولا من القولين فى هذا السياق ، اذ الأمر المحقق أن القـائد الأعظم قد برز للزعامة فى السياسة الهندية خلال هــذه الآونة بعينها ، وانه كان على آراء مخالفة لآراء زعماء المسلمين فى مسألة الخلافة وفى مسألة المقاومة السلبية ، فكان أحق الزعماء بأن يتناول عصا القيادة فى الآونة التى فترت فيها حركة الخلافة وبطل التعاون من جرائها بين المســلمين والبرهميــين فى المقاومة السلبية

كان جناح من مبدأ الأمر يؤمن بضياع الجهود التى تبذل فى الهند لتأييد الخلافة العثمانية ، وكان يؤمن كذلك بأن المقاومة السلبية سياسة ضررها بالهنود فى النهاية أكبر من ضررها بالدولة البريطانية

فلما تحولت جهود المسلمين الهنود الى الداخل كان أصلح الزعماء لتوجيه تلك الجهود زعيم يحصر جهوده فى بلاده ولا يسلم مقودها لمن يتخذون مسألة الخلافة وسيلة للمناورات السياسية ، ولم يكن تضافر المؤتمر وزعماء المســلمين على نصر الخلافة الاســـلامية الا منـــاورة من المناورات التى

لا يسيغها طبع جناح ولا تدخل فى تفكيره ولا فى شعوره

وكان اجتماع الخواطر على استقلال المسلمين بدولتهم فى الهند نتيجة طبيعية لقنوطهم من عمل شىء ناجع فى ابقاء الخلافة العثمانية بعد أن تخلى عنها أبناؤها

والمسلم على الدوام يفرق بين الحاكم وولى الأمر فى فرائض الطاعة والمعاونة ، فهو لا يدين بالطاعة لغير الله ولا يقبل الحكم من « ولى الأمر » الا لأنه يتولاه بأمر الله ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق

أما « الحاكم » الذى ليس « وليا للأمر » فطاعته ضرورة قاسرة والخروج عليه واجب كلما امتنعت هذه الضرورة القاسرة، وقد كان العزاء من قبل أن ولى الأمر قائم بالخلافة وان كانت ولاية روحية ، فأما ولا خلافة فليس من المعقول أن يخرج المسلمون من طاعة الدولة البريطانية ليدخلوا فى طاعة الدولة البرهمية ، وخير العوض فى هذه الحالة قيام دولة مستقلة للمسلمين فى بلادهم ، ان لم تكن هى دولة الخلافة فهى حكومة اختيار لا حكومة اضطرار فى غير موجب للاضطرار

كذلك كانت مسألة الخلافة ـ من مسائل العالم الاسلامى الكبرى ـ عاملا مهما فى قيام الباكستان وفى توجيه القيادة الى الزعيم الذى آمن منذ البداءة بحصر الجهود فى هذه الناحية ، فكان هذا أيضا تفسيرا واضحا للزعامة التى تقود الجماهير بالقول الصادق الصادع ، من غير تأثير ولا اضطرار الى أساليب التأثير

الملتقى

والملتقى هو ملتقى القضية وزعيمها ، ملتقى الباكستان والرجل الذى رشحته الحوادث لقيادة المساعى المتشعبة التى جمعت شملها وأبرزتها كما هى اليوم دولة بين كبريات الدول فى القارة الأسيوية ، وفى العالم بأسره

فى سنة ١٩٠٦ أخذت بريطانيا العظمى تفكر فى توسيع نصيب الهنود من الحكومة الذاتية

وفى هذه السنة اجتمع فى « دكا » زعماء المسلمين لانشاء العصبة الاسلامية

وفى سنة ١٩٠٨ ــ بعد سنتين من انشاء العصبة ــ توجه وفد من زعماء المسلمين الى اللورد منتو ــ حاكم الهند ــ يطلبون منه وضع قواعد للانتخاب تكفل تمثيل المسلمين فى المجالس النيابية التى تشترك فى الحكومة الذاتية ، وان كان اشتراكا فى حدود الشورى وابداء الآراء لا يتجاوزهما الى حدود الابرام والتنفيذ والحكومة الفعلية

لم يكن جناح من مؤسسى العصبة ، ولم يكن كذلك من أعضاء الوفد الذى عرض مطالب المسلمين على الحاكم العام

ولا يفهم من هذا أنه كان يقاطع الحركة الاسلامية ويجهل دواعيها ، وانما يفهم منه أنه كان الى ذلك الحين يعتقد أن المؤتمر أداة صالحة لخدمة الهنود جميعا من مسلمين

وبرهميين (١) وظل على هذا الاعتقاد بعد انشاء العصبة بسبع سنوات

ولما أيقن أن وجود العصبة لازم لرعاية المصالح الاسلامية وقبل الانضمام اليها طلب من شاهديه أن يقررا فى كتاب ترشيحه أن رعاية هذه المصالح لا تعنى بحال من الأحوال نقض الولاء للقضية القومية الكبرى التى وقف عليها حياته

وفى سنة ١٩١٤ كان هو رئيس البعثة الهندية التى قصدت لندن لشرح القضية الهندية وتوضيح المطالب التى ينتظر أهل الهند تحقيقها بعد نهاية الحرب العظمى

وفى سنة ١٩١٦ كان هو رئيس اللجنة التى تألفت للاحتفال بمقدم غاندى من افريقية الجنوبية ، وكان رئيسا لفرع من أكبر فروع العصبة المؤلفة لتوسيع حقوق الحكم الذاتى ، وهو فرع بومباى

ويمكن أن يقال أن وفاة الزعيم البرهمى جوكهيل فى سنة ١٩١٥ كانت هى مفترق الطريق بينه وبين سياسة العمل الموحد فى القضية الهندية ، وأول الطريق الذى التقى فيه بقضية الباكستان وأصبحت قضيتها فيه هى قضية قائدها الأعظم بغير افتراق

كان جوكهيل رجلا نادرا فى نبله وحكمته وسماحة عقله ، وكانت قدرته على فهم موقف قومه وغير قومه هى

---

(١) استعملنا فى هذا الكتاب كلمة البرهميين للكثرة الغالبة من الهنود غير المسلمين ، وهى كلمة تعوزها الدقة ولكنها أصح دلالة من كلمة الهنادكة وكلمة الهنود

الهبة الزعامية الكبرى التى انفرد بها ، أو كاد أن ينفرد بها بين الزعماء البرهميين

كان يتقبل بالارتياح نظم الانتخاب التى تعطى المسلمين ضمانهم فى المجالس النيابية ودواوين الحكومة ، وكان يتقبل بالارتياح ما هو اكبر من ذلك وأدعى الى التوفيق بين الأكثرية والأقلية من أبناء البلاد الهندية جمعاء ، وذلك هو النظام الاتحادى « الفدرالى » اذا لم يكن منه بد فى عهد الحكومة الوطنية

وقد كانت هذه السياسة التى انتهجها الزعيم البرهمى النبيل من املاء الواقع كما كانت من املاء سماحته وحكمته وبعد نظره

كانت من املاء الواقع لأن الشقاق على السلطان عبث وهو محصور فى أيدى القوة الاجنبية ، وكان من الحماقة أن يتقاتل البرهميون والمسلمين على سلطان لم تنزل عنه بريطانيا العظمى ، ولم يكن ظاهرا فى السنوات الاولى من القرن العشرين أنها تنوى النزول عنه فى وقت قريب

فانتهج جوكهيل خطة التوفيق لأنها أسمح الخطط وأحكمها وأوفقها لسياسة الواقع ، ومضى على هذه الخطة فى خلال زعامته التى انتهت بوفاته قبل نهاية الحرب العالمية ، فكانت هذه الكارثة ضربة قاصمة لسياسة الوحدة وتضافر الجهود القومية

وقد تتلمذ جناح على جوكهيل وأعجب به وحافظ على الولاء له واقناع المسلمين بمجاراته فى ولائه ، فلما قضى الرجل (فى شهر فبراير سنة ١٩١٥) بدأ الانحراف فى

دوائر المؤتمر عن ذلك النهج القويم واخذت الشكوك والظنون تساور تلميذه الكبير وتقنعه بضرورة العزلة التى كان يجاهد عقله ونفسه على رفض الاقتناع بها غاية جهده

ولكنه لم يعجل ولم ييأس ولم يكن من دأبه ان يتراجع سريعا عن رأى آمن به وثابر زمنا على تنفيذه ، فحاول بعد سنة من وفاة جوكهيل أن يقرب بين العصبة والمؤتمر ، وأسندت اليه رئاسة مجلس العصبة فى سنة ١٩١٦ فتعمد أن يعقده فى مدينة « لكناو » حيث انعقدت جلسة المؤتمر الكبرى فى تلك السنة

وقد واصل سعيه حتى اتفقت العصبة والمؤتمر على المسائل المختلف عليها جميعا وخرجت الهيئتان بالميثاق المشترك بينهما ، فأطلق الفريقان على جناح لقب « سفير الوحدة » واشتهر بين البرهميين والانجليز باسم رسول السلام

ان المساجلات التى دارت بين الفريقين بعد ميثاق « لكناو » تملأ المجلدات الضخام وتضل القارىء فى تيه من المتناقضات والتهم والردود لا يسعنا فى هذه الرسالة أن نستقصيها أو نلخصها ، وليست بنا حاجة الى استقصاء لها أو تلخيص

ولكننا نحيط بها جميعا اذا رجعنا الى سياسة الواقع فى عهد جوكهيل وسياسة الواقع فى السنوات الاخيرة من الحرب العالمية الثانية

لقد أسلفنا أن سياسة الواقع فى عهد جوكهيل كانت تهديه الى قبول الضمانات المطلوبة للمسلمين ، لأن الخلاف

عليها عبث مع استئثار الدولة البريطانيـــة بالسلطان كله واجتماع أزمة الحكم كلها فى يديها ، سواء فى الهنـــد أو فى العاصمة البريطانية

أما سياسة الواقع فى السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية فقد كانت على نقيض تلك السياسة

كان نزول الانجليز عن السلطان قد أصبح فى حكم الواقع القريب ، وكان من المحقق عند البرهميـــين والمسلمين أن السلطان « الفعلى » سينقل رويدا رويدا الى أيدى الهنود ، ومنهم من كان كبير الأمل فى انتقاله دفعة واحـــدة خلال سنوات لا تجاوز أصابع اليد الواحدة

ولهذا أخذ ساسة المؤتمر يرفضون ما قبلوه واعتبروه من الحلول المعتدلة قبل ذلك ، وكلما أصبحت السلطة القومية حقيقة واقعة أنكر ساسة المؤتمر شيئا مماكان مقبولا عندهم وتشبثوا باحتكار القيادة واحتكار دعوى النيابة عن الهند قاطبة ، فمنهم لا من غيرهم تصـــدر الأوامر والمشورات ، ومعهم لا مع غيرهم يتفق الانجليز ونواب الطوائف

وجرت الانتخابات مرات فأبى ساسة المؤتمر أن يعترفوا بنائب ناجح ما لم يكن عضـــوا فى المؤتمر مقرا لسياســـته ومواثيقه

وأنكروا حق العصبة فى النيابة عن مسلمى الهند وقالوا انها جماعة من جماعات كثيرة ، ثم صمدوا على هذا الانكار بعد ثبوت هذه النيابة بنسبة النجاح بين المرشحين ، فقابلت العصبة انكارا بانكار ، وأعلنت أنهـــا لا تعترف بالمسلمين

أعضاء المؤتمر ما لم يكونوا أعضاء فى العصبة ممثلين لها بتزكية منها

□

وشاعت فكرة الانفصال وجعلت تزداد شيوعا كلما ازداد اليقين بصعوبة التفاهم على ضمانات الحكومة الموحدة ، ونادى غاندى من جانبه باستحالة الفصل بين التوأمين السياميين اللذين تجمعهما بنية واحدة تموت بانفصال أحدهما عن الآخر

ونادى حزب المؤتمر بشعاره الذى لا يتحول عنه وهو « الاستيلاء أولا ثم التقسيم ثانيا » وان البرهميين والمسلمين عليهم معا أن يناضلوا فى سبيل الاستيلاء على الحكم القومى ثم يعملوا على التقسيم بعد الاستيلاء عليه

وطفق جناح يجيب على هذا الشعار بشعار مثله يلخص به موقفه وموقف العصبة الاسلامية ، وهو أن المسلمين لا يناضلون فى سبيل عبوديتهم

وجاء يوم يئس فيه القائد الأعظم كل اليأس من التفاهم على ضمانات الحكومة الموحدة ، وأجمع النية على ضرورة الانفصال

ويبدو من وقائع شتى أنه كان على حق فى يأسه وتعويله الحاسم على فض الخلاف باقامة دولتين منفصلتين

ولا نطيل فى سرد هذه الوقائع لأنها كما أسلفنا تستوعب المجلدات الضخام فى الشرح والمناقضة والرد واعادة الرد من

الجانبين ، ولكن واقعة كشمير بعد الانفصال مثل يغنى عن أمثلة كثيرة على صعوبة التفاهم بالبينات والحجج المنطقية والمقاييس العامة التى يتفق عليها الطرفان بل يتفق عليها جميع الأطراف

وخلاصة الواقعة أن سلطان حيدر أباد المسلم هم بالانضمام الى الباكستان فأنذرته حكومة الهند الا يفعل وأتبعت الانذار باحتلال بلاده عنوة لأنها ترى أن المعول على الشعب لا على السلطان ، فلما أرادت الباكستان أن تطبق هذا المبدأ نفسه وتلحق بها ولاية كشمير التى يبلغ المسلمون فى جميع أقاليمها ـ ومنها اقليم جمو ـ أكثر من سبعين فى المائة ، رفضت حكومة الهند هذا المبدأ وأعلنت أنها تقاومه بالقوة العسكرية ، مع أن الكثرة الغالبة بين أبناء حيدر أباد من المنبوذين الذين لجأوا الى الولاية الاسلامية لأنهم لايقبلون المهانة التى يعاملون بها بين البراهمة . أما أبناء كشمير المسلمون فلا فاصل بينهم وبين اخوانهم فى العقيدة ولا فى الميول السياسية ولا فى الموقع الجغرافى والعلاقات الاقتصادية

ومن هذا المثل المشهود على ملأ من العالم تتضح صعوبة التفاهم فى الأمور الداخلية على مبدأ متفق عليه بغير ضمان

خلاف فى الأسس

ولا يستوفى البيان عن طبيعة الخلاف بين جناح وساسة المؤتمر اذا حصرناه كله فى قضية الباكستان

فالواقع انه خلاف فى أسس التفكير يتناول السياسة

الهندية فى جميع مناحيه ولا يقف عند القضية الاسلامية البرهمية

فقد كان جناح يستغرب سياسة غاندى ولا يؤمن بجدوى « التنسك » ورفض الحضارة ومقاطعة الوظائف والمصانع والصناعات العصرية برمتها ، ويقول انه يريد حملة تضرب الهدف ولا تضرب صاحبها ، وضرب الهدف فى رأيه انما يكون بالوسائل السياسية ووسائل المقاومة الفعالة عند لزومها

وغاندى فى اعتقادنا رجل عظيم أو روح عظيم كما وصفناه فى كتابنا عنه بعد مقتله ، ولكن المؤيدين لمذهبه والمعارضين له متفقون على أنه رجل برهمى (١) فى كل قطرة من قطرات دمه وكل باعث من بواعث روحه : أساليبه برهمية ووسائله برهمية ومثله العليا برهمية وصيامه ومقاومته السلبية ودعوته الى الاهمسا من صميم النحلة البرهمية ، وغايته من حركته أن يجعل الهند « رام راج » أى مملكة الاله « رام » رب البراهمة ، وهو الرب الذى انطلق لسانه بدعائه ساعة أصيب برصاص الجانى المعتدى عليه

وان هذه الزعامة المستغرقة فى البرهمية لتستدعى بطبيعتها زعامة أخرى تقابلها وتشبهها فى تمثيل قضيتها والعمل بروحها فى أداء رسالتها ، فلم يكن مع قيام غاندى مناص من قيام جناح أو من يحل فى محل جناح

---

(١) كان غاندى جينيا من طائفة الجينية التى خرجت من بين البراهمة لاصلاح بعض معتقداتهم ، ولكننا نطلق البراهمة كما اسلفنا فى هذه الرسالة على كل من ينتمى الى الكثرة الغالبة من الهنود غير المسلمين

وقد كان استقلال الرأى يدفع بجناح الى مخالفة المؤتمر ومخالفة العصبة الاسلامية فى وقت واحد

كان يخالف المؤتمر فى سياسة غاندى المستغرقة فى البرهمية ، وكان يخالف العصبة وجمهرة المسلمين الهنود فى حركة الخلافة ، لأنه زاول السياسة ومسألة الخلافة تكاد تلفظ أنفاسها ، واشتد حزنه فى ابان حركة الخلافة لضياع هذا الجهد فى غير طائل ينفع مسلمى الهند أو ينفع الخليفة والخلافة ، فهجر الهند وأوشك أن يعتزل السياسة وراح يقيم فترة فى البلاد الانجليزية الى أن تهدأ السورة وتثوب الأمور الى قرارها

فأما خلافه مع حزب المؤتمر فلم ينحسم ، وأما خلافه مع العصبة فقد انحسم بانقضاء اللجاج فى مشكلة الخلافة ، وأصبح مصير الخلافة معززا لقيام دولة اسلامية مستقلة فى البلاد الهندية ، فلا يجتمع على مسلمى الهند ضياع الخلافة وضياع الاستقلال الى آخر الزمان

الأمل الأكبر

لا جرم يدرك الشاعر الملهم محمد اقبال أن الرجل قد خلصته الحوادث ومحصته التجارب ومحضته آراؤه وحصافته لمهمة فريدة لا يضارعه فى الاستعداد لها أحد من أبناء عصره ، فذكره غير مرة أنه هو الأمل الأكبر لقيادة الحركة الاسلامية وبناء صرح الدولة المرجوة ، فكتب اليه قبل قيام الباكستان بأكثر من عشر سنوات يقول له : « اننى أعلم أنك رجل جم المشاغل ، ولكنى أرجو الا تضجرك كتابتى

اليك حينا بعد حين ، اذ أنت اليوم المسلم الوحيد فى الهند الذى يحق للأمة كلها أن تتطلع اليه لقيادتها فى هذه الزوبعة التى تهب على شمال الهند الغربية ، وانني لمبلغك أننا نعيش فعلا فى حرب أهلية لولا الشرطة والجيش لعمت فى مثل لمح البصر »

وذاك أن الشاعر الملهم على غيرته الدينية كان يأنف من استجداء المعونة للخلافة ، ويقول عن الوفود التى تؤم الغرب لطلب هذه المعونة انها ذهبت تحمل « الكوز » لتجمع فيه فضلات المحسنين !

ومن طرائف هذه القضية أن « الاسم » الذى تسمى به قد وجد لها فى ابانه ، (سنة ١٩٣٣) فسماها « رحمة على » أرض الطهر واتخذ هذا الاسم من حروف أسماءالأقاليم التى يراد تكوين الباكستان منها ، وهى بنجاب وأسام وكشمير وسند وتليها « تان » من اسم بلوشستان

وقد قيل بحق ان الباكستان دولة خلق اسمها قانونى وألهمها ضميرها شاعر وأقام لها بنيتها التى تحمل اسمها وضميرها قائد ، أو قائد أعظم ، هو جناح

وخير تلخيص للموقف قبل قيام الباكستان بأشهر معدودات أن نرجع الى حديث للقائد الأعظم أفضى به الى مندوب صحيفة « المصور » قبل انتهاء سنة ١٩٤٦ ببضعة أيام يذكر فيه المشابهات بين قضية الهند وقضية مصر والمناقضات بينهما ، وفيه يقول : « اذا لم يتحقق الباكستان فى الهند فان الشرق الأوسط كله ـ وبخاصة مصر ـ سيكون فى خطر من التوسع الهندوكى الاستعمارى المنتظر ،

وسيتخذ هذا الاستعمار الهندوكى طابعا اشد خطرا وشناعة من الاستعمار البريطانى فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين »

ثم قال : « اذا لم يوافق الهندوكيـــون على مشروع الباكستان فلن نشترك معهم فى الجمعية التشريعيــة التى ينادون بها . أما الكونجرس الهندى المقترح لتوحيد الهند تحت حكومة مركزية ، فمشروع استعمارى محض ، يحتمل كثيرا أن يهدد منطقة الشرق الأوسط كلها بالخطر ، بحجة انها المجال الحيوى والسوق القريبة للمنتجات الهندوكية ، على طريقة المرحوم هتلر ! »

واستطرد قائلا : « ان أعدل حل للقضية الهنــدية هو ايجاد دولتين هنديتين احداهما منفصلة عن الاخرى : الاولى مسلمة فى الشمال الغربى والاخرى هندوكية فى الشمال الشرقى ، يتبادل بينهما السكان حتى لا يكون فى أيهما قلة طائفية ويقوم بينهما أساس للتفاهم المشترك وتبادل المعونة »

واشار الى وحدة وادى النيل فقال : « ليس ثمة تعارض بين دعوتى هذه الانفصالية ورضاى عن اتحاد وادى النيل ولا عن الاتحاد بين مسلمى مصر وأقباطها ، لاتفاق اللغــة والعادات والتقاليد بين شطرى الوادى ، فضلا عن الشعور والتشابه العجيب فى تكوين المصرى والسودانى ، ولــكن يدعو الى الانفصال بين المسلمين والهندوكيين الاختلاف فى كل شىء حتى فى الأكل ، فان الهندوكى لا يريد المسلم أن يأكل لحم البقرة التى يعبدها

« واذا كان الأقباط فى مصر يعيشون فى صفاء ووئام مع

المسلمين فان الأمر بين المسلمين والهندوس مختلف جدا ، لأن الأقباط يؤلفون عشرة أو خمسة عشر فى المائة من مجموع السكان الذين لا يجاوزون عشرين مليونا . أما مسلمو الهند فهم حوالى مائة مليون ويستطيعون أن ينشئوا دولة قوية ، ومساحة مصر صغيرة بخلاف الهند فهى أكبر من القارة الأوربية ومن السهل أن تنقسم الى دولتين عظيمتين ، وفى الاسلام والمسيحية تسامح ولا تتجاوز الفروق بينهما شؤون العبادة الخاصة ، أما الديانة الهندوسية فهى التى تسير الهندوس فى كل شؤون حياتهم ، وبينها وبين الأديان السماوية المعروفة فوارق كبيرة جدا تحمل فى ثناياها كل أسباب النزاع والخصومة »

مهمة غير سهلة

مهمة وجدت قائدها وقائد وجه مهمته ..

تهيأ لقيادتها وتهيأت لقيادته خلال سنوات متتابعات أبانت فيها الحوادث ما يلزم ومن يلزم : ما يلزم من العمل ومن يلزم لانجاز ذلك العمل ، وانتفى من الوسط كل باعث من بواعث القيادة التى تحاول أن تقنع بغير ما يوجبه الواقع من براهين الصدق فى الاقناع

هذا كما أسلفنا غير مرة هو تفسير الاعجوبة النادرة فى قيادة القائد الأعظم : أعجوبة قائد للجماهير يخاطبها بلهجة كأنها لهجة العالم فى المصنع أو لهجة القاضى فى سجلات الأحكام

لكن الفارق بعيد بين مهمة مهيأة ومهمة ممهدة مذللة ان المهمة الممهدة سهلة مذللة المصاعب تتطلب من العامل

لها جهد اتمام وتكملة ، لا جهد تأسيس وانشاء

أما المهمة المهيأة فقد تكون أعسر مهمة يتولاها صاحبها، وكل ما هنالك أنه يتولاها هو ولا يتولاها غيره ، لأنه أقدر على مصاعبها من الآخرين

كانت قضية الباكستان مهمة مهيأة لقيادة جناح ، ولم تكن مهمة ممهدة له أو لغيره من القادة

كانت عظيمة المصاعب كأعظم ما تكون المصاعب فى اقامة الدول ، وغاية ما هنالك انها المصاعب التى وجدت صاحبها المستعد لها المقتدر على انجازها ، بما اختص به من ملكات ومن صفات ، وأهمها الصدق الصراح

كان شعور المسلمين بالحاجة الى الباكستان درجات ، فليس أصحاب الكثرة فى أقاليمهم كأصحاب القلة فيها ..

أصحاب القلة فى أقاليمهم أشد حاجة الى الدولة المستقلة، ولكنهم سينتقلون من بيئاتهم التى تعاقب عليها آباؤهم وأجدادهم ، وسينتزعون أنفسهم انتزاعا من المولد العزيز ومن مورد الرزق ومن مآلف الصبا والشباب ..

وأصحاب الكثرة فى أقاليمهم أقل حاجة الى الدولة المستقلة ، ولكنهم يعاشرون قلة من البراهمة المتهوسين بالعصبية الدينية ، فيلمسون على قرب بوادر النقمة وقلة الأمان،ويهمهم أن يخلص لهم ضمان دائم كضمان الباكستان

والمسلمون بعد مذاهب وطوائف : سنيون وشيعة واماميون واسماعيليون ومن طائفة القاديانى أو طائفة الفرائض أو غير ذلك من طوائف الأئمة والدعاة

وهم على هذا متفاوتون فى الغيرة والحماسة ، متباينون فى العمل للدولة الجديدة ، يتساءلون على أى أساس تقام ، والى أية غاية تهدف ، ومتى يكون البدء بتوطيد الأساس والهدف الى الغاية

هل تكون دولة مدنية أو دولة الهية ، وهل تكون كذلك دفعة واحدة أو على تدرج وأناة ؟ وعشائر البادية والجبال ما شأنها ؟ هل تحكم حكما عصريا أو تحكم بنظامها الموروث الذى تتغير الدول ولا يتغير ؟

واللغة ـ لغة التعليم والعبادة ـ كانت هى أيضا مثار الخلاف والاشاعة المتناقضة : هل تفرض الاردية وحدها وتلغى البنغالية أو تبقى البنغالية للتعليم والمعاملة فى بعض الجهات وتعم الاردية جميع الجهات

نوازع ودوافع تضطرب فيها العقول والظنون وتتضارب فيها الأمزجة والاهواء ، ولاسيما فى الفوج الأول قبل الاستقرار والطمأنينة وقبل جلاء النيات والغايات

واقترنت هذه العوامل الطبيعية بعوامل أخرى غير طبيعية من تلفيق الدسائس والنفاق ، فكانت هناك جماعات اسلامية ظاهرها الخدمة العامة وباطنها خدمة المأجورين للسياسة الاجنبية ، وفرصتها هى هذه الفرصة فى أوائل الحركة بين المتشابهات والمتناقضات ، وبين مواقع التهم ومطارح الاطماع

وعجيب ، أوليس بعجيب على الوجه الذى تختاره ، أن يتعرض خادم الباكستان الاكبر فى معترك هذه الظنون

والنــوازع لجريمة اغتيال لم يتعرض لها عــدو من أعداء الباكستان الدخلاء أو الأصلاء فى البلاد ، وأن يكون مدبر اغتياله أحد المدينين له بنعمة الحرية والانقاذ

حدثت هذه المحاولة ـ محاولة اغتيال جناح ـ فى صيف سنة ١٩٤٣ والقائد عائد الى بومباى من احـدى رحلاته ، وأذاعت الصحف نبأ عودته وموعدوصوله ، فذهب فتى من جماعة « خاكسار » يتربص به عند وصوله ، ولم‌يتمكن من مقاربته لاشتداد الزحام فى استقباله ، فقصــد الى قصره ساعة الغداء ، وكأنه علم من قبل انها سـاعة الراحة لمعظم الخدم ما عدا القائمين باعداد المائدة للقائد الأعظم وضيوفه، فتلقــاه بواب القصر بالترحاب كما يتلقى الزوار وقاده الى الكاتب الخاص الموكل بالاستماع الى من يطلبون المقــابلة ، ودخل جناح المكتب فى هذه اللحظة فرأى‌الفتى وسأل‌كاتبه عنه فأبلغه ما ســمعه منه وانه يرغب فى محادثته لمسألة هامة . فأمر جناح كاتبه أن يعطيه ورقة يكتب فيهـا كل ما يطلبه ويبلغه بعدها عن موعد يلقاه فيه لاتمام حـديثه ، واذا بالشاب يهجم على القائد العــام ويهم بأن يطعنه فى صدره بمدية أخرجها من طيات ثيــابه ، وتمكن فعلا من اصابته بجرح غير ذى بال ورفع يده ليتم فعلتـــه فأدركه البواب قبل أن يعيد الكرة واعتقله وهو يصيح : « دعونى دعونى .. لست مأجورا .. ان شيخى يأمرنى بقتله .. »

وقد حوكم الفتى وحكم عليه بالسجن خمس ســنوات ، وتبين أنه ينتمى الى تلك الجماعة جماعة خاكسار ، أى‌جماعة الارضيين أو الترابيين الذين تسموا بهــذا الاسم تواضعا

واظهارا للفقر والمتربة ، ولهم نظام فاشى ونزعة شيوعية ، ورئيسهم عناية الله المشرقى من خريجى جامعة كمبردج ، انشأ الجماعة فى البنجاب سنة ١٩٣١ وحلت جماعته سنة ١٩٤١ واعتقل كما اعتقل غيره من رؤسائها ، ثم أفرج عنـــه فى السنة التالية بمساعى العصبة الاسـلامية وشفاعة القائد الأعظم ، فجوزى على هذه الشفاعة بعد سنة واحدة بتدبير تلك المؤامرة للقضاء عليه

تلك بعض المصاعب الشعورية أو النفسانية التى كان على القائد العام أن يعالجها ويصرف أذاها فى سبيل تأسيس الباكستان

والمصاعب المادية فى غنى عن البيان ، لانها تشمل فيما تشمله تنظيم المواصلات لنقل المهاجرين الى الباكســتان والمهاجرين منها ، واعداد المساكن واعداد الاعمال ومرافق المعيشة لكل ساكن على حسب صناعته وموطن تلك الصناعة من الدولة الجديدة ، والانفاق على الدولة من خـزانة لا مال فيها ولا مورد لها بعد من الضريبة أو الانتـاج أو القروض الميسورة ، ويكفى فى تقريب هـذه الصعوبات الى الاذهان أن نستعيد آراء المعقبين على اقتراح انشاء الباكستان عند شيوعه وتسامع الناس به فى أقطار العالم لأول مرة ، فقد كان تعقيبهم جميعـا يتلخص فى كلمة واحـــدة هى كلمة « مستحيل »

وربما علم جناح من هـــذه المصاعب ما لم يعلمه غيره ، وربما كان جناح أولى من غيره بالحكم على المشروع بالاستحالة ، لو كان مجرد العلم كافيا لتقدير الاستحالة ونفض اليدين من الفكرة منذ اللحظة الأولى

الا أن الأب الذى ينظر الى ابنه المريض بالداء المعضل الميئوس منه يحكم عليه حكما غير حكم العواد وغير حكم الاطباء أنفسهم ، وان كانوا من صانعى المعجزات

ان الأب يعرف هنا ما لا يعرفه العواد ولا يعرفه الاطباء : يعرف ان ابنه يجب أن يعيش ولا يقصر همه على أن يسأل: هل سيعيش أو لا يعيش ؟

وليس تصويرنا لتقدير المصاعب على هذه الصورة فى نظر القائد الأعظم تصويرا نعتمد فيه على التخيل أو تشبيهات المجاز

كلا ! ان البرنامج العملى الذى حفظته أقوال القائد العام ومساعيه وتمهيداته تدل دلالة غير مقصودة على أن كلمة « الواجب » هى مفتاحه الوحيد الذى يفتح به المغلقات ويقتحم به السدود ويذلل به العقبات

فاذا سأله سائل : هل تذلل هذه المصاعب أو لا تذلل كان جوابه الأول : هل هناك محيد من تذليلها ؟ فان كان تذليلها هو الواجب الوحيد فلتذلل ولتخلق وسائل التذليل واحدة بعد أخرى حتى تزول المصاعب من الطريق الذى لا محيد منه وليس عنه حول ، فانما النكول عن الواجب هنا أصعب من الهجوم عليه واطراد السير فى طريقه على عجل أو على مهل ، وهل عنه حول أو منه محيد ؟

حادثة الصحفى الخبير بالقضية الهندية بيفرلى نيكولاس صاحب كتاب حكم على الهند فسأله : « ان أعم الاعتراضات التى توجه اليك من نقادك انك لم توضح الباكستان توضيحا دقيقا ، وان هناك تفصيلات جمة تتعلق بالدفاع والمرافق

الاقتصادية وطوائف الاقليات أهملتها وتركتها عمدا غامضة مبهمة ... فما قولك فى هذه الاعتراضات ؟ وهل يبدو لك انها من قبيل النقد المنصف المعقول ؟ »

قال جناح : « انها ليست من الانصاف ولا من حسن الفهم للأمور ، وبخاصة حين تأتى من انجليزى له أية معرفة بتاريخه . فان ايرلندة حين فصلت جاءت الوثيقة التى دونت قرار فصلها فى نحو عشرة أسطر ، نعم عشرة أسطر من الحروف المطبوعة لتسوية نزاع معقد لا يصدق العقل مبلغ تعقيده ، قد سمم السياسة البريطانية عدة قرون ، وتركت جميع تفصيلاته للمستقبل ، وما أقدر المستقبل من فيصل جدير بالاعجاب فى كثير من الاوقات ! وها أنا ذا قد أعطيت العالم من البيان ما يزيد كثيرا على عشرة أسطر لبيان المبادىء والوقائع التى تدور عليها قضية الباكستان، ولكنه من وراء طاقة الانسان كائنا من كان أن يدون فى الورق تفصيلا سابقا لا يخرم منه حرف عند تنفيذه ، ونعلم عدا هذا من تاريخ الهند أن هذا التفصيل لا ضرورة له على الاطلاق ، فأين كان هذا التفصيل حين تقرر فصل بورما فى مؤتمر المائدة المستديرة ؟ وأين كان هذا التفصيل حين فصلت السند من بومباى ؟. لم يكن له وجود ، لم يوجد ولم تكن ثمة حاجة لأن يوجد ، وكان المبدأ المهم فى القضية ان قاعدة الانفصال تقررت ، ويأتى كل شىء بعد ذلك فى حينه »

قال بيفرلى : « كيف تصور « الأمر المهم » فى قضية الباكستان ؟ »

قال : « فى خمس كلمات ٠٠ ان المسلمين أمة ٠٠ فان سلمت هذا وجب ان تسلم تسليم الرجـل الأمين ان حق الباكستان قائم ، ووجب أن تسلمه ولو كانت مصـاعبها مائة ضعف المصاعب الماثلة فى الواقع »

قال الصحفى : « أتنظر الى الناحية الدينية حين تقول ان الباكستان أمة ؟ »

قال جناح : « بعض النظر لا كله ٠٠ ولتذكر ان الاسلام ليس عقيدة وحسب ، بل هو آداب سلوك عملية واقعية ، واننى لأنظر الى النـاحية الحيوية ، والى كل شىء ذى بال فى حياة الانسان ، اننى لأنظر الى تاريخنا والى أبطالنا والى فنوننا ، والى عمائرنا وآثارنا وموسـيقانا وقوانيننا وفقه شريعتنا »

وسكت الصحفى يكتب ، وتركه القائد يكتب لحظة ثم قال : « فى جميع هذه الشؤون نظرتنا لا تختلف وحسب بل تناقض النظرة البرهميـة ٠ نحن أناس مختلفون ٠ مختلفون فى الاسـماء والملابس والأطعمة ، مختلفون فى الحيـاة الاقتصادية وفى مثل التربيـة والتعليم ، وفى معاملتنا للنساء ، وفى مسلكنا مع الحيوان ٠٠٠ وخذ اليك مسألة البقرة الأبدية ٠٠٠ نحن نأكلها والبراهمة يعبدونها، وقد يخطر للانجليزى أن هذه « العبادة » تقليد من التقاليد التى تصلح للفرجة ، وبقية من تراث الايام الخالية ٠ لكن الأمر على نقيض ذلك ٠ ومنذ أيام فقط أصبحت مشـكلة البقرة فى مدينتنا هذه احدى مشاكل الأمن العام ٠٠٠ وما مشكلة البقرة بعد الا واحدة من ألوف »

ثم صمت لحظة ونظر الى الصحفى سائلا : «ماذا كتبت؟»

قال : « انما كتبت « ان المسلمين أمة ٠٠ »

قال : « وأنت على يقين من صدقها ؟ »

قال : « نعم ! »

فقال جناح وعلى فمه ابتسامة : « فأى سؤال بعدها تسأل ؟ »

قال الصحفى : « أول سؤال اقتصادى : فهل المسلمون عسيون أن يصبحوا أغنى أو أفقر بعد قيام الباكستان ؟ وهل فى نيتكم فرض مكوس بينكم وبين أرجاء الهند الاخرى ؟ »

وأعرض جناح عن الجواب ليسأل كما قال على سبيل التغيير : « هبهم سألوك ماذا تفضل : انجلترا غنية فى حكم الجرمان أو انجلترا فقيرة فى حكم نفسها ؟ »

فأجاب الصحفى قائلا ومعرضا أيضا عن الجواب : «قلما أحتاج الى جواب »

فعاد جناح يقول : « أولست ترى اذن أن سؤالك سمل مرجوع ؟٠ ان المثل الأعلى أمامنا أرفع من المتاع الشخصى والراحة الموقوتة ، والمسلمون أمة مخشوشنةدءوب صابرة، فاذا كان قيام باكستان وشيكا أن يزيدهم قليلا من الدأب والنحافة فلا شكاية ، ولكن ما بالها تزيدهم دأبا ونحافة ؟ وماذا هناك مما يوحى الظن بأن هبة القومية ستوقر كواهل الأمة من جانب الثروة الاقتصادية ؟ ان أمة مستقلة عدتها نحو مائة مليون ، قلما يقع فى الخاطر ، وان كانوا عاجلا

لا يملكون كفايتهم ولا يحسنون الصناعة ، انهم يصيرون الى حال أسوأ من حالهم وهم مبعثرون غير منظمين تحت سيادة مائتين وخمسين مليونا يستغلونهم ، وانه لمما يعييني تصورا أن يقال ان الباكستان استحالة اقتصادية بعد معاهدة فرساى ، فان الأدمغة الكبار التى قطعت أوربة قطعا مشتتة مزرية بين حدود ملفقة متقاطعة لهى آخر من يحق له أن يكلمنا فى مصاعب الاقتصاد وهى لدينا أيسر من ذاك ٠٠ »

انها اذن مهمة غير سهلة وغير ممهدة ، وليست هى كذلك فى رأى صاحبها ولا فى رأى أحد من المتطلعين اليها من داخلها أو خارجها ، ولكن الباكستان ينبغى أن توجد ولو كانت المصاعب التى تعترضها مائة ضعف مصاعبها ، لان وجودها واجب لا محيد عنه ، وبهذا المعيار يوازن جناح بين كفة المصاعب وكفة الواجب ٠ أما سائر ما فى الحديث المتقدم من الموازنات بين الأزمات والحلول فى اقامة الدول الناشئة شرقا وغربا فهو آية أخرى على القضية التى تهيأت لصاحبها وتهيأ للاضطلاع بها على بعدها من السهولة ومن التمهيد

أسرته وطفولته

أسرة القائد

أسرته من أصل برهمي ، وقد أسلم أحد أجداده منذ قرن متحولا من البرهمية الى النحلة الاسماعيلية ، وهى نحلة لها دعاة عاملون ذوو نشاط وذكاء عملوا فى الهند الغربية وعلى حدودها منذ ألف سنة ، وكان من دعاتهم فى تلك البقاع قبل ألف سنة والد الفيلسوف ابن سينا كما هو معلوم

وكأنما شاءت الأقدار أن يكون جناح بتاريخه وتاريخ أسرته حجة قائمة على الحقيقة العظمى فى تكوين النفس الهندية ، وهى أن الدين قد شغل فى هذه النفس مكان كل عاطفة عامة : شغل فيها مكان الوطنية والعصبية والجامعة القومية ، وصبغ فيها الافكار والأذواق والآداب العملية والنظرية بصبغته ، فهو طبيعة أخرى كالطبيعة التى تركبها الفطرة فى بنية الجسم والضمير

رأينا فيما تقدم كيف كان الزعيمان جناح وغاندى يتقابلان ، أو يتناقضان، فى أساليب العمل ودوافع الحركات السياسية وفلسفة الحياة العامة والحياة الشخصية

ويكاد القائل أن يقول : هو التناقض بين الفطرة الآرية والفطرة السامية ، أو هو الاختلاف بين كيان انسان عريق فى الهندية ، وانسان عريق فى العربية منتقل الى الهند مع

العرب الذين انتقلوا اليها بعد الاسلام

ويكاد القائل أن يقول انها خصائص الأجناس ، وان المهاتما يعمل فى السياسة بسليقة والقائد الأعظم يعمل فيها بسليقة أخرى

لكنه يرجع الى تاريخ القائد الأعظم فاذا هو برهمى كالمهاتما فى أصوله العريقة ، ويرجع الى ملامح القائد الأعظم فلا يرى هنديا أقوى منه تمثيلا للسمات الهندية وامعانا فى المحافظة على سحناء السلالة وقسماتها وشمائلها هندى فى الهنديين

واختلفت العقيدة فى الأسرة منذ ثلاثة أجيال ، وعاشت هذه الاجيال الثلاثة بعقيدة جديدة بينها وبين الله وبينها وبين الناس : تغيرت نظرتها الى الدنيا وما وراءها، وتغيرت عاداتها فى الطعام والكساء ومقاييسها للاعمال والاخلاق، وجاء العرف الذى لا يقصد ما يصنع ولكنه يصنع ما ليس يصنعه الذين يطيلون القصد والروية ، فاذا بزعيم المسلمين يسمى «القائد الأعظم » واذا بزعيم البراهمة يسمى « المهاتما » ... ولا فارق أصدق ولا أعمق ولا أدق من الفارق بين الزعيمين وبين الأمتين وبين الثقافتين فى عقلية الواحد وعقلية الجماعة

وكأنما شاءت الأقدار من جانب آخر أن يكون جناح بنحلته الدينية صالحا للمهمة السياسية التى تصدى لها وقادته حوادث زمانه اليها ، فان القدرة على التنظيم وتوجيه الحركات السياسية قديمة فى الاسماعيليين ، وسماحتهم فى الاحاطة بالجمهرة العامة والنخبة المختارة معا قد أصبحت تقليدا من تقاليدهم التاريخية ، وقد بلغت هذه السماحة

غايتها فى عصر الجامعة الاسلامية والحرية الفكرية ، وبلغت غاية غاياتها فى جناح نفسه ، فقدكان يلغى كل تسميةطائفية تطلق على المعاهد العامة ، وقد غير أسماء بعض المعاهد لانها تشير الى فروق بين نحلة ونحلة من النحل الاسلامية ،وجاء انتماؤه الى الاسماعيليين النزاريين - مع هذه السماحةالتى تسع الناس جميعا - مرجحا قويا لزعامته ومزيلا للخوف من كثرة الطائفة وانتشارها . فان الاسماعيليين النزاريين قلة صغيرة فى الأمة الاسلامية الهندية ، وقد ذكرنا الاطمئنان الى زعيم ينتمى اليها باطمئنان الأمم فى أوربة الى اختيار ملوكها من أسر الممالك الصغيرة ، لان هذا الاختيار أمان من غلبة الأقوياء على الضعفاء ، وكذلكأحس المسلمون - على غير قصد ولا تدبير - انهم يطمئنون الى زعامة رجل يعول على الجميع ولا يستأثر بسلطان طائفته على مقاليدالجاه والسطوة ، فهو أهل لخدمة الجميع بتأييد الجميع

طفولته

نشأ جناح فى أسرة برهمية أسلمت فى القرن الماضى ، وانتقل جده بعد فتنة سنة١٨٥٧بخمس سنوات الىبومباى ثم كراتشى ، وكان أبوه « بونجا جنه » ثانى أبناء أبيه يعمل فى شركتهم التجارية واحدا من مديريها الذين يشتركون فى ادارتها لاتساع نطاقها ورواج أعمالها ، وكان معظم أعمالها فى تصدير الجلود وملحقاتها ثم لحق بها الكساد من جراء القلاقل السياسية والأزمات الاقتصادية قبل أن يتم جناح تعليمه فى انجلترا حوالى سنة ١٨٩٧

و « محمد على » هو الولد الثانى لأبيه ، ولد فى الخامس

والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٦ ، وتعلم دروسه الأولى فى مكتب من مكاتب التعليم بكراتشى ، ثم انتقل الى بومباى لاتمام تعليمه فى مدرستها الابتدائية ، وتدرج منها الى مدرستها العالية التابعة للجماعة الاسلامية ، ثم عاد الى كراتشى لينتظم فى مدرسة السند العليا ، وحصل على الاجازة التى ترشحه للتعليم الجامعى من معهد البعثة الكنسية المسيحية سنة ١٨٩٦ وهو فى السادسة عشرة من عمره

والاخبار المحفوظة عن الطفل « محمد على » جد قليلة، ولا يروى عن أيامه فى المدارس الاولية والثانوية غير النزر اليسير ، ولكنه على نزارته يدل على طفولة نجيبة مجتهدة ، وعلى ذكاء ألمعى يلفت النظر ويوحى الى أصدقاء أبيه من الطبقة الحاكمة انه أهل للتفوق فى التعليم العالى وان مدارس الهند فى ذلك الزمن لا تكفى لتثقيف ملكاته واستيفاء تعليمه ، فقد كان أبوه يعده للعمل التجارى ويقنع بنصيب الشاب الهندى من العلم فى المدرسة الثانوية ثم تدريبه بعد ذلك على مصاحبته فى التجارة الى أن يستقل برأس مال يغنيه أو يشاركه فى ادارة تجارته الواسعة ، ولكن صديقه السير فردريك جرافت لمح فى الصبى الناشىء مخايل ذكاء نادر يرشحه للمراكز العليا فنصح لأبيه غير مرة أن يرسله الى احدى الجامعات الامريكية ، واختار له دراسة الحقوق والعلوم الادارية لانها هى « المعرفة » اللازمة لمناصب الرئاسة فى الحكومة

وفى كتاب « نوادر مشرقة فى حياة القائد الأعظم »

لمؤلفه الاستاذ صديقى قصة رواها عن سيدة من كبار سيدات الأسرة تنبىء عن ولع شديد بالقراءة واستيعاب الكتب غير المدرسية شهدت بوادره فىالطفل جناح ولما يبلغ الثامنة من عمره

قال : « زارت السيدة منزلهم بعد غيبة طويلة ، ولم تمض عليها غير أيام قليلة حتى لحظت ان النوريتأخر بالليل فى حجرة الاطفال ، فخطر لها ان الصغار ناموا قبل أن يطفئوا المصباح،وقصدت الى الحجرة لاطفائه ، ولكنهاوجدت وهى تخطو الى داخل الحجرة ما لم يكن لها فى حساب : وجدت أخوة جناح وأخته نياما وهو جالس مستغرق فى القراءة ، وأدهشها أنه فى مثل تلك السن الباكرة يغوص فى مطالعاته حتى لا يتنبه لدخولها ، وسكتت لحظة ثم بدا لها أن تفاتحه الحديث ، فقالت مدللة : ماذا يسهرك الىهذه الساعة يا جنيح ؟

فراعها أن يرد عليها الصغير جناح قائلا : « سيدتى .. أرجوك أن تخفضى صوتك قليلا »

قالت : « لمه ؟ »

قال : « ان أخوتى مستغرقون فى النوم ولا أحب أن أقلقهم »

وكان هو يتكلم هامسا حتى اضطرت السيدة أن تتقدم خطوات أخرى آلى المائدة التى كان يجلس عليها لتسمع كلماته ، وسألته : « ما بالك تحجب نصف المصباح ؟ »

قال : « اننى أفعل ذلك دائما لأبعد الشعاع عن أعين الصغار »

قالت السيدة : « أتعلم كم الساعة الآن ؟ »

قال : « نعم يا سيدتى ، ولكن السهر الى هذه الساعة مألوف عندى »

قالت : « أولا تكفيك ساعات النهار للمطالعة ؟ »

قال : « كلا ! بل أنا مع قراءتى بالليل لا أجد الوقت كافيا لمطالعة الكتب التى أريد الاطلاع عليها،وأحسب اننى لن أصبح شيئا مذكورا فى الدنيا بغير القراءة »

قالت : « والى متى تريد أن تواصل السهر ؟ ألعلك تنوى أن تسهر الى الصباح ؟ »

قال : « كلا يا سيدتى !..انما هى ساعة أخرى ثم أنام »

☐

ان هذه القصة جديرة بطفولة جناح ، ومنها نعلم اصالة الكياسة والأدب فى طبعه ، ونعرف ما وراء عارضته القوية التى كانت تسعفه فى الاستشهاد بالكلمة الملائمة لساعتها، والتى كانت تمده بالقدرة على التعبير بغير تلجلج ولا انحراف عن الهدف السريع حيث كان

ان وراء تلك العارضة القوية محصولا غزيرا من المطالعة والاستظهار ، ووراء الرجولة التى اشتهرت بالكياسة الى أخريات أيام الشيخوخة ، طفولة شبت على الكياسة الأصيلة فى الطباع : كياسة المبالاة الحقة بشعور الآخرين والحرص الشديد من الايذاء والاساءة ، لا مجرد الكياسة فى الزى والحركة والاشارة ، وهى على الأبعد الأقصى كياسة ثياب

وما يعلم من أخبار تعليمه فى شبابه يعزز هـذا النزر اليسير الذى روى عن طفولته الباكرة ، ســـواء فى أدب الاطلاع أو أدب الاجتماع

حياته العامة

المرحلة الأولى

تعددت نظم التربية التى تفتح عليها ذهن جناح الصغير قبل حصوله على اجازة التعليم الثانوى فى السادسة عشرة من عمره

تعلم فى مكتب أولى من المكاتب التى تتابع النظام المألوف فى تعليم الصغار فى الشرق منذ عشرات القرون ، ثم تعلم فى مدرسة حديثة تابعة لجماعة اسلامية ، ثم تعلم فى مدرسة حديثة تابعة لجماعة مسيحية ، ثم تعلم فى الجامعات الانجليزية وتلقى خارج الجامعات ما يتلقاه الشاب فى ذلك العصر من المعارف العامة الميسرة لمن يختلفون على الأندية وأصحاب الآراء

وهذا التباين فى نظم التعليم يضر بعقل الطفل اذا تناقضت النظم وتضاربت ومحا بعضها ما يثبته البعض الآخر ، ولكنه يفيده اذا تنوع فى غير تناقض وتضارب ، وقد يعود الطفل أن ينظر مبكرا الى تعدد الجوانب وتباعد وجهات النظر ، ولا سيما الطفل الذكى الموهوب المطبوع على حب المعرفة والتوسع فى الاطلاع

وقد كان جناح محبا للمعرفة متوسعا فى الاطلاع منذ طفولته الأولى كما علمنا من بعض أخباره فى نحو الثامنة من عمره ، الا أن هذه الأخبار لم تذكر لنا موضوعاته التى كان

يغرم بمطالعتها فى تلك السن الغضة الباكرة ، ولكنها على الأرجح من غير القصص وكتب التسلية الصبيانيـة ، لأن الطفل الذى يطمح الى أن يكون شيئا فى الدنيا كما روت عنه قريبته الكبيرة لا يتوهم أن كتب التسلية عون له على هذا الطموح ، ولا نحسب أن اللغة الكوجراتية فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تشـتمل على زاد من القصص وكتب التسلية يحسب فيها حساب الاطفال الصغار

على أن موضوعاته التى أولع بها فى انجلترا قد تنبىء عن الموضوعات التى كان يجنح اليها بتفكيره وميول نفسه منذ طفولته الاولى ، وأوفر هذه الموضوعات نصيبا من اقباله وعنايته دروس القانون والادب ومراجع التاريخ من ناحيته السياسية على الخصوص

كان يتعلم القانون رغبة واستعدادا لا لمجرد التوسل به الى مناصب القضاء والادارة ، وكان ذهنه من أذهان الفقه والمحاماة والفصاحة الخطابية طبعا وفطرة لا تعلما ومراسا بالصناعة

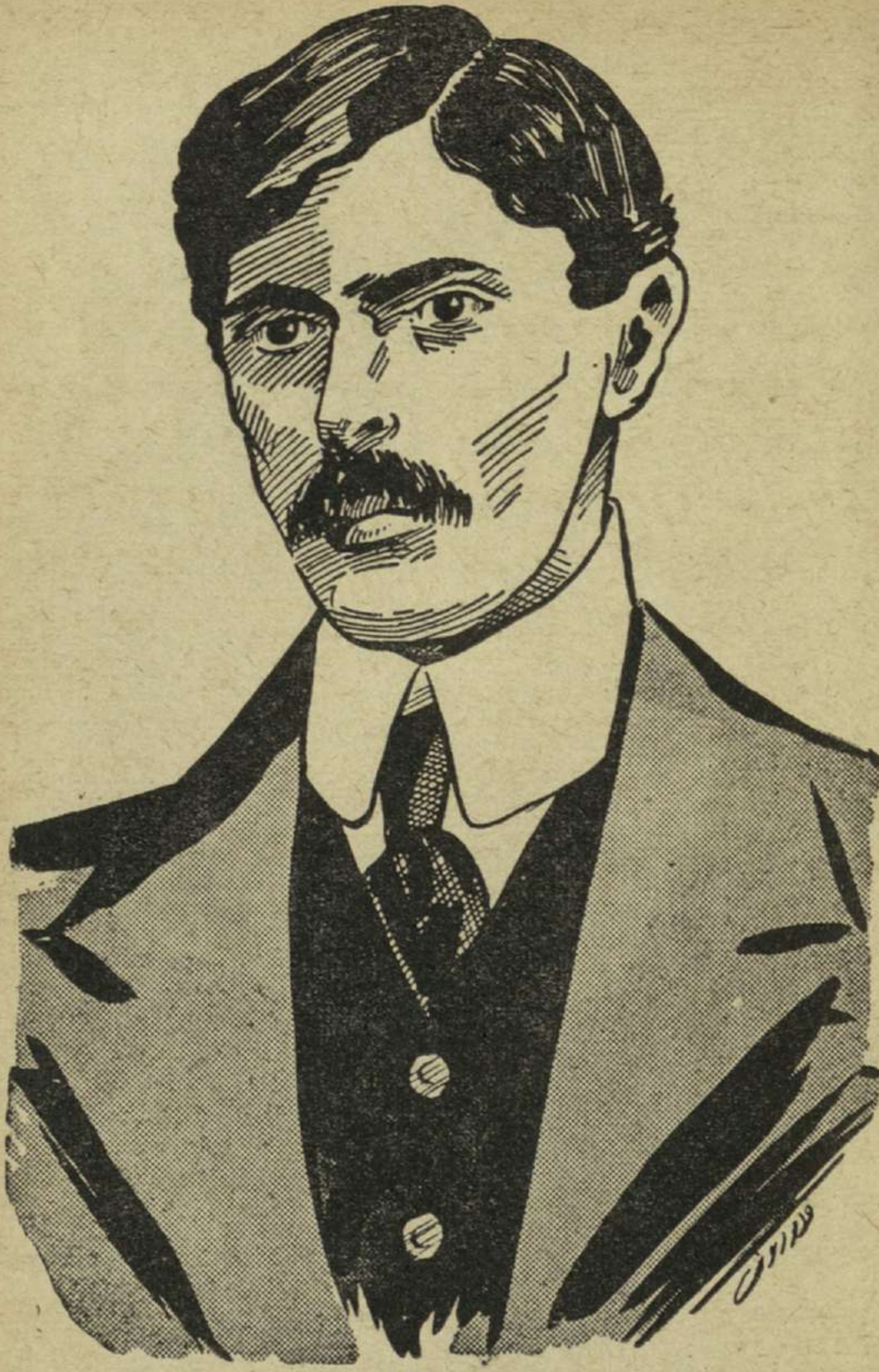
وكان غرامه بالأدب شغلا شاغلا يكاد أن يتفرغ له لولا قدرته على تنظيم دراسته وتقسيم وقته ، فاشترك فى ناد يدرس أعضاؤه روايات شكسبير قراءة وشرحا وتمثيلا ، ومثل بعض الشخصيات فى رواياته التاريخية وغير التاريخية وراض لسانه وحركاته على الالقاء المسرحى حتى لزمته هذه العادة فى مرافعاته وخطبه ، فلوحظ عليه أنه يسترسل فى الالقاء الفنى على غير انتباه منه ، وكان خصومه يغتنمون هذه الفرصة فينعـتونه بوصف الممثـل قدحا فى آرائه

السياسية أو حججه القانونية ، وهو مطعن سهل رخيص قد تسوغه اشارات الرجل وحركاته بحكم العادة ، ولكن ليس فى أقواله ومعانيه جميعا ما يسوغ ذلك المطعن لمن ينصفون فى النقد والاتهام

وقد لزمته عادة الالقاء الفنى من أوائل أيامه فى الحياة النيابية الى أخريات أيامه فى الزعامة واقامة الدولة ، وأفحم مرة أحد الأعضاء الانجليز فى الجمعية التشريعية أثناء المناقشة الحامية على الاتفاق التجارى بين بريطانيا العظمى والهند ، فقال العضو الانجليزى ـ واسمه السير جيمس ـ ان الاستاذ جناحا كوكب لامع : كوكب يشبه جريتا جاربو فى ملكاته التمثيلية ، فأخذ جناح يكرر آراء السير جيمس الفاجعة ووعيده بهجوم اليابان واحجام الدولة البريطانية ومستعمراتها عن معاملة الأسواق الهندية ، وقال : لعل صاحبنا لا يحسن كلاما غير الانذار بالفواجع . انها ملكة جديرة بممثلة المآسى مارلين ديتريش ... وان هذه الفاجعة نفسها لمأساة !

وكان هذا فى سنة ١٩٣٩ أى بعد عودته من البلاد الانجليزية بأكثر من أربعين سنة

ولم يكن القاؤه الفنى كل ما بقى من عاداته منذ دراسة الادب والاندماج فى الجو الشكسبيرى أو جو الشعر المسرحى على الاجمال ، بل كان عرض التاريخ عرضا حيا أحد الفوائد الفكرية والنفسية التى غنمتها قريحته اليقظى من أدب شكسبير ، وكانت سرعة الشاهد الادبى على لسانه تارة من كلام شكسبير وتارة من كلام برونن‍ج وزملائه فى عصره



محمد على جناح فى شبابه

احدى الفوائد التى تصلح لمواقف الخطابة والمساجلة ، وكانت فيما عدا ذلك منصرفا حسنا له عن هموم الحياة الخاصة ومزعجات السياسة كلما ضاقت حلقاتها ، وكثيرا ما تضيق

وعرف زملاؤه عنه فى لندن انهم اذا بحثوا عنه فلم يجدوه تفقدوه فى مكتبة المتحف البريطانى حيث يجد بغيته من أسفار التاريخ ونسخ المراجع النادرة فى السياسة العصرية والسياسة الغابرة ، وكانت ساعاته فى لندن مقسمة بين الجامعة ومكتبة المتحف ونادى شكسبير وواجبات المجتمع التى لم ينسها قط طول حياته ، ومنها زيارة اخوانه من أبناء الهند وأصحابه وأصحاب أسرته من الانجليز

وقد وصل الى انجلترا وهو فى السادسة عشرة وعاد منها الى وطنه وهو فى العشرين ، وبدأ اتصاله بالحياة العامة فى هذه الفترة على سنته التى نصح بها الطلاب فى مثل سنه بعد اشتهاره والاعتراف بزعامته ، وسنته هى أن الاهتمام بالمريض غير ادعاء القدرة على علاجه ، وان الطالب يستعد لغده ويخدم وطنه باستيفاء عدته وخبرته ، ولا يخدمه بتعجل العمل قبل أدائه

وكان أول اتصال له بالحياة العامة نشاطه مع زملائه الطلبة الهنود فى ترشيح شيخ الهنود المقيمين بلندن يومئذ ـ دادا بهاى ناروجى ـ لاحدى الدوائر البرلمانية ، وهاجه سخطا قول اللورد سلسبورى للشيخ الهندى أنه من السود الملونين ... مع أن ناروجى كان أنصع بشرة من جمهرة الانجليز ، فوقر فى خلده من ذلك اليوم أن الألوان نفسها ، تتغير فى رأى المستعمرين اذا بدت على بشرة الشرقيين

وقد كان سخطه على سلسبورى من أسباب اعجابه بغلادستون ، وضاعف اعجابه به مناصرته للقضية الايرلندية وهى يومئذ قضية متواضعة تقنع بالحكم الذاتى للايرلنديين ، ولكنها على هذا التواضع كانت تثير نقمة الدولة البريطانية ويحاربها فريق من الأحرار كما تحاربها كثرة المحافظين ، ويقول الذين سمعوا خطب جناح أيام الدعوة الى الباكستان أنها تذكرهم بخطب غلادستون أيام الدعوة الى « الهوم رول » أو الحكم الذاتى للايرلنديين الجنوبيين ، فان قيام دولة فى شطر من ايرلندة نموذج سابق لقيام دولة الباكستان ـ فى شطر من القارة الهندية ـ واذا جاز فى الجزيرة الصغيرة أن تحتمل حكومتين فأصلح من ذلك للتطبيق العملى قيام حكومتين تحكم احداهما نحو مائتين وخمسين مليونا ، وتحكم الأخرى نحو تسعين

□

وتعد هذه المناوشات السياسية أثناء الدراسة بانجلترا حادثا هاما فى حياة جناح العامة ، لأنها عينت له مدرسة السياسة التى يؤمن بصلاحها لتوجيه وطنه فى تلك الآونة ، وهى مدرسة المعتدلين أمثال ناروجى وجوكهيل وفيروز شاه وراناد ، وكانت هى المدرسة التى تتوسط فى مسائل العلاقات بين الهنود والانجليز وبين البرهميين والمسلمين من الهنود وبين التشبث بالقديم والشطط مع الجديد

ولم تتقبل طبيعته مبادىء هـذه المدرسة « المعتدلة » لسهولتها كما توحى صفة الاعتـدال أحيـانا الى أذهان

المستمعين من بعيد ، فان التوسط بين المذاهب المتطـرفة كثيرا ما يسفر عن عداء الجميع واعتزال جميع الأطراف ، ولكنه تقبل مبادىء المدرسة المعتدلة لأنه آمن بصلاحها على وعورة سبيلها وكثرة الشروط التى يتطلبها التصدى لأعبائها وتكاليفها ، وكان امتحانه الأول فى سياستها أعسر امتحان يعرض للسياسى الناشىء فى أول حياته العامة ، وهو موقف الساسة الهنـود على تباين آرائهم ونزعاتهم من تقسيم البنغال

كان تقسيم البنغال من معضلات الهنـد الشائكة التى لا يتأتى الحكم عليها بمقياس واحد ولايسهل على كل سياسى أن يقبلها أو يرفضها جملة واحدة ، لأنهـا نافعة ضارة ، بريئة الظاهر فى بعض جوانبها مدخولة الباطن فى جوانبهـا الاخرى

كانت بحق عقدة تحير الباحث فيها من المسلمين خاصة ، وقد يرفضها الهندى البرهمى بغير تردد ولكنها لا تقابل بالرفض فى البيئات الاسلامية بهذه السهولة

أما هذه المعضلة فخلاصتها أن اللورد كرزون حاكم الهند يومئذ قرر تقسيم البنغال الى اقليمين لـكل منهمـا ادارة منفصلة عن ادارة الاقليم الآخر ، وكان عدد سكان البنغال نحو سبعين مليونا من البراهمة والهنود ، يقيم المسلمون فى أصقاعه الشرقية ويضطرون الى ربط أعمالهم ومرافقهم بمدينة كلكتا عاصمة الاقليم كله ، وفى ذلك تعطيل لمصالحهم واكراه لهم على اخضاع تلك المصالح لفئة من ذوى اليسار البرهميين المسيطرين على العاصمة وعلى الأصقاع الغربية ،

فاذا انتقلت العاصمة فى الاقليم الشرقى الى « دكا » خفت هذه السيطرة وتهيأت للسكان المسلمين فرص الاستقلال بالمرافق التجارية والاقتصادية ، وهكذا كان لورد كرزون يعلل مشروعه فى تقسيم الاقليم الكبير

الا أن المسألة ذات وجهين ظاهر وباطن ، وهذا هو ظاهرها المعقول . أما باطنها المستور فهو الانتقام من ذوى اليسار الذين كانوا يؤيدون فى ذلك العهد حركة الاستقلال والمطالبة بالحكومة الذاتية ويمدونها بالمال ويتعهدونها بالتشجيع والتحريض ، وهو عدا هذا ضربة مصوبة الى الوحدة الوطنية بين البرهميين والمسلمين ، ومثار للشقاق الدائم بين الفريقين فى البنغال يتبعه لا محالة شقاق دائم فى سائر الأقاليم

هذا هو الامتحان الاول الذى امتحن به جناح فى مدرسته السياسية ، وهى مدرسة المعتدلين ، وانه لامتحان عسير ، أشبه ما يكون بالامتحان الذى زعموا أن القوى الخفية من المردة والجان تختبر به عزيمة الولى حين يريد السيطرة عليها والاحتفاظ بالاسم الأعظم الذى يروضها على الطاعة ، وقد يكون فيه الهلاك ... وقد تكون فيه السيادة والنجاة

كان هذا فى سنة ١٩٠٥ بعد عودة جناح من انجلترا بتسع سنوات ، وكان تقسيم البنغال لعبة بارعة لم يحسب المستعمرون أنها سوف تصبح بعد أربعين سنة مبدأ حاسما يقضى على سلطانهم فى قسمين أكبر من قسمى البنغال وأخطر ، وهما دولة الهند ودولة الباكستان

ومن عبر التاريخ وتقلبات أطواره أن بطل التقسيم

الكبير كان أشد المعارضين لتقسيم البنغال على الرغم من اغتباط المسلمين به واعتبارهم اياه خيرا سيق اليهم دون أن يسعوا اليه.

لقد ظن حكام الهند يومئذ أن الغنيمة أعظم من أن ترفض وأن تكشف ما وراءها من مآرب الاستعمار ، فلم يكترثوا لاخفاء هذه المآرب وراح رؤساؤهم يعلنونها وراحت صحيفتهم الـ « ستيتسمان » لسان حالهم فى العاصمة تبسطها بغير مواربة ، فقالت كما روى شلفنكار Shelvankar, فى كتابه عن مشكلة الهند : « ان المقصود بها هو تربية قوة اسلامية فى شرق البنغال يرجى أن تكبح تلك القوة المتزايدة فى زمرة البرهميين المتعلمين »

ولكن جناحا كان أقوى شكيمة من أن تقتاده الغنيمة صاغرا ، وأيقظ بصرا من أن يتناول الطعم من يد الصياد الماثل أمامه علانية بالمرصاد . وكأنما كان يلحظ بعين الغيب عاقبة هذا التقسيم ، وأن الصياد سيخلق منه طعما آخر ويرجع عن التقسيم بعد حين ليجعل من الضغن ضغنين ومن السخط الجديد مسعرا يلعج به نيران السخط القديم

على أن جناحا لم يخسر ثقة المسلمين بثباته على سياسة المدرسة المعتدلة فى معضلة البنغال ، لأنهم اعتقدوا اخلاصه وفهموا موقفه على حقيقته وأدركوا أنه نظر فيه الى غاية بعيدة : وهى احباط دسيسة استعمارية تنقلب منافعها أضرارا مطبقة تحيق بالجميع ، فانتخبوه فى سنة ١٩٠٩ عضوا للمجلس التشريعى الأمبراطورى عن بومباى ، وقابل هذه الثقة بالمثابرة على مبدأ الوحدة الهندية والدفاع عن

حقوق الهنود حيث كانوا وعلى اختلاف العقائد التى يدينون بها داخل الهند أوخارجها ، وفى احدى مناقشات هذا المجلس وقعت المشادة المشهورة بينه وبين اللورد منتو حاكم الهند ، لأنه وصف معاملة حكومة الناتال للهنود المقيمين فيها بالفظاعة ، ونبهه الحاكم الى أن هذه الكلمة ليست من الكلمات البرلمانية التى تسمع من أعضاء المجالس عند الكلام على حكومة أخرى ، فلم يشأ جناح أن يتراجع ولم يشأ كذلك أن يكابر فى أدب من آداب التقاليد الرسمية ، ومضى قائلا : « نعم يا لورد .. وأرانى أنبعث الى استخدام لهجة أقوى لو أننى طاوعت نفسى ، ولكننى الاحظ دستور هذا المجلس ولا أحب أن أتخطاه لمحة عين ، الا أننى أقول ان المعاملة التى ابتلى بها الهنود هناك أقسى ما يمكن أن يتخيله المتخيل ، وان الشعور الذى تقابل به فى الهند شعور اتفاق واجماع ... »

وبعد انتخابه للمجلس التشريعى الأمبراطورى بسنة وقع عليه الاختيار للوساطة بين نواب البرهميين ونواب المسلمين الذين اجتمعوا فى « الله أباد » للتشاور فى قواعد الوحدة

ثم عرضت مسألة الوقف فى سنة ١٩١٣ ولم يرض فيها عن مسلك البرهميين ولا عن مسلك الحكومة الهندية ، وكلف نفسه دراسة هذه المسألة من الوجهة الفقهية ومن الوجهة الاجتماعية ، وخامره شك منذ تلك السنة فى امكان خدمة الهنود جميعا باقتصار عمله على المؤتمر ، فاستجاب رجاء مولانا محمد على الرامبورى والسير السيد وزير حسن وقبل

الانضمام الى العصبة الاسلامية على شريطة التوحيد بين سياسة الهيئتين

وكان فى تلك السنة قد ندب للسفر الى لندن لشرح المطالب الهندية ، فاشتغل فى هذه الرحلة بانشاء جماعة مركزية بالعاصمة الانجليزية لرعاية الطلبة الهنود ، وندب بعد عودته مرة اخرى للسفر الى العاصمة الانجليزية والنيابة عن المؤتمر فى عرض مقترحاته التى يبنى عليها انتخاب الأعضاء الهنود فى مجلس وزارة الهند ، ثم عمل من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٠ على عقد مجلس المؤتمر ومجلس العصبة الاسلامية فى موعد واحد ومكان واحد ، لأنه ـ وهو عضو فى الهيئتين ـ كان يقدر أنه مستطيع ان يتدارك كل بادرة خلاف قبل أن تتشعب وتستعصى على التوفيق

الا أن سنة ١٩١٥ فى الواقع قد دخلت بالسياسة الهندية عامة فى طور غير طورها الذى استقامت عليه الى ما قبل الحرب العالمية الاولى ، ومرجع هذا التحول الى حادث شخصى وحادث عالمى فى وقت واحد

فالحادث الشخصى هو وفاة الزعيم جوكهيل الذى كان مناط الثقة بقضية الوحدة عند الجميع ، والحادث العالمى هو شيوع الكلام عن حقوق الأمم المحكومة أثناء الحرب العالمية وبعدها ، فقد كانت السلطة العظمى أو السلطة العليا كلها فى أيدى الحكام الانجليز قبل نشوب الحرب العالمية ، فكان الاتفاق على مكافحتها غير عسير وكان التنازع على الحقوق التى لا وجود لها أمرا من الأمور التى لا تلجىء الضرورات العاجلة الى حلها والبت فيها ، فلما بدأ البحث فى تنظيم

الحقوق الوطنية بدأ البحث فى ضمانات تلك الحقوق ، وبدأ التشدد هنا والحذر هناك

ولهذا يمكن أن يقال أن المرحلة الأولى فى حياة جناح العامة قد انتهت سنة ١٩١٥ ، وأن اليقين بامكان العمل على خدمة الهنود جميعا فى هيئة واحدة هى هيئة المؤتمر قد تزعزع منذ تلك السنة ، ثم نشأت المرحلة الثانية التى انعقدت فيها النيات والعزائم على استقلال الباكستان ، ولكنها لم تنشأ دفعة واحدة منذ الخطوة الاولى ، فقد بقى جناح بين الحربين العالميتين يحاول التوسط على عادته فى « المدرسة المعتدلة » ويعتقد أن خدمة الهند جميعا مستطاعة بالتوفيق بين الهيئتين ، وان الاتفاق على الضمانات المتبادلة يرضى البرهميين ويرضى المسلمين ، ولكن الحرب العالمية الثانية قد أوشكت أن تقضى على البقية الباقية من سلطان الاستعمار وأن تقيم الحكم الهندى فى مكانه على مدى سنوات معدودات ، فتحول البحث من الاتفاق على مقاومة المستعمر الى الاتفاق على قواعد الحكم الوطنى وضماناته ، فتبين مع الزمن أن الاتفاق على الفروض أيسر من الاتفاق على الحقيقة، كلما اقتربت من الواقع الماثل للعيان

الثقة

صفة لا غنى عنها

الصفات التى لابد منها لنجاح الزعماء كثيرة تتنوع على حسب القضايا التى يخدمونها ، وعلى حسب الوسائل التى تلائم كل قضية فى أوانها

وقد تتناقض هـذه الصفات حتى يصبح النافع منها فى قضية ضارا فى قضية أخرى،وحتى يكون منها ما هو قرين للخذلان اذا اختلفت الوسائل والبيئات

ولكن صفة واحدة من صفات النجـاح لا غنى عنها فى جميع الزعماء ، وفى جميع القضايا ، وفى جميع الاوقات ، ومع جميع الوسائل ، وعلى جميع الفروض

تلك هى الثقة !

ثقة الزعيم بنفسه ، وثقة الناس به ، وبغير هـذه الثقة فى نفس الزعيم وفى نفوس النـاس لا تنجح قضـية من القضايا الكبرى ، الا أن يكون النجاح مصادفة لا محل فيها للتدبير ولا للتقدير

ثقة الزعيم بنفسه لازمة ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه

وثقة الناس بالزعيم لازمة ، والا لم يسـلموه حاضرهم ومستقبلهم ، ولم يضعوا بين يديه مصالحهم وآمالهم،وكثيرا ما تكون الآمال أعز على أصـحابها من المصـالح ، وكثيرا ما يبذل الناس المصلحة المضمونة ويضنون بالأمل المحفوف

بالشكوك والمخاوف ، بل تكون الشكوك والمخاوف أدعى الى الضن به والحرص عليه والبحث عن الزعيم الذي يمحص لهم الأمل فيخليه من الشك والخوف

لابد من ثقة بالنفس فى الزعيم ..

ولابد من ثقة بالزعيم فى نفوس أنصاره ومؤيديه ..

وقد كانت « الثقة » بعنصريها صفة من صفات القائد الأعظم المفروغ منها ، الغنية بنفسها عن براهينها وقرائنها

هل كان جناح يثق بنفسه ؟..

هل كان محل الثقة من أنصاره ومؤيديه ؟..

لم يسأل أحد قط هذا السؤال ، ولم يشعر أحد قط بالحاجة الى هذا السؤال ، لانه كان أشبه بسؤال السائل : هل فى البحر المحيط ماء ؟ وهل فى أفلاك السماء نجوم ؟ وهل فى الشمس نور ؟ وهل فى القمر ضياء ؟

بديهية من البديهيات .. بل أكثر من بديهية

واقع من الوقائع من رآه علم به علما غنيا عن التفسير

وليست ثقة الانسان بنفسه قرارا يتخذه فى ضميره بعد مداولة ومشاورة ، ولكنها شىء راسخ فى قرار الوجدان على الرغم من كل مداولة ومشاورة ، وشىء لا يمنحه الانسان نفسه بأسباب وقرائن ، ولكن يتلقاه من خالقه كما يتلقى نفسه ، فهما جوهر واحد تتعدد أعراضه للناظرين

ثقته بنفسه

كانت ثقة جناح بنفسه جزءا من نفسه ، وقوة لا فكاك لها من طبائعه وعاداته

وكانت فيه كل لوازم هذه الصفة على أتمها : كرامة ، واستقلال بالرأى ، وعزيمة لا تنثنى عما يريد ، متى عرف ما يريد

كان منظره يوحى الى الناظر باحترامه ، وكان هو يؤمن فى قرارة نفسه بأن هذا الاحترام حق له وأكثر من حق : واقع مفروغ منه بغير كلام

وعرف جناح وعرف أنه رجل ذو كرامة فى وقت واحد

عرف النائب العام مكفرسون هذه الكرامة فى المحامى الناشىء منذ النظرة الأولى ، فخصه بكرامة لم يظفر بها هندى قط من قبله ، وهى اشراكه فى مكتبته القانونية يدخل اليها حين يشاء ويأخذ من مراجعها ما يشاء

وعرفها القضاة الانجليز،وقلما يعترف المستعمر صاحب السلطان بكرامة رجل من المحكومين وان عرفها ، فقضى أيامه الطوال فى المحاماة موفور الكرامة عند القضاة وذوى الرئاسة فى المحاكم ومجالس التشريع

ومن خلائق بعض الناس أن يتجاهلوا الكرامة احيانا لأنهم يعلمونها ويضيقون ذرعا بعلمها ، لا لأنهم يجهلونها أو يغفلون عنها

من خلائق اللؤماء أنهم يضيقون ذرعا بكرامة الكرماء وينتحلون المعاذير الواهية للغض منها ويغبطون أنفسهم بالاجتراء عليها ، كلما أتيحت لهم فرصة اجتراء

وتعرض جناح لهذا الخلق غير مرة فى حياته القضائية ، وحياته السياسية ، فسلك فى جميع هذه المرات بداهة ما ينبغى أن يسلكه ، غير مكترث بما يكون

اشتهر رئيس محكمة انجليزى بالفطرسة والولع بالتبكيت والغضب فى موجب وغير موجب ، ومثل جناح امامه فى قضية كبيرة يهمه أن يكسبها ، وقلما كان أصحاب القضايا يندبونه للدفاع عنهم فى غير القضايا الكبار

وخيل للرئيس أن الحسناء تغرى باحتمال المهر وأن عظم ، وان حرص المحامى على القضية خليق أن يجرعه غصة التبكيت والزجر العنيف ، فاذا هو يقاطع جناحا فى مرافعته ، ولم يكن خاشعا فى هذه المرافعة كما تعود الرئيس المتغطرس من المحامين « الوطنيين » أن يخشعوا فى حضرته أمام هيبته، فيقول له فى غضب وكبرياء :

« أتراك تحسب أنك تتكلم هنا أمام قاض من قضاة الدرجة الثالثة ؟ »

وفى مثل رجع الصدى كان الجواب يعود الى الرئيس المتغطرس بالرد المفحم ، ولم يفرغ القاضى من كلمته حتى كان جناح يفوه برده كأنه كان يتوقع عبارة القاضى بنصها ، ويقابلها بجوابها الذى يعادلها :

فرفع جناح رأسه وأثار الى القاضى بصره ، وقال فى لهجة صارمة : « وهل الذى أمامك أيها القاضى محام من الدرجة الثالثة تخاطبه بمثل هذا الكلام ؟! »

وكانت درسا للقاضى المتغطرس نفعه بعد ذلك مع جناح ومع غيره من المحامين

□

وقد تواتر عن جناح بين جميع عارفيه أنه مدقق فى مواعيده ، يحسبها بالدقيقة ويرتبط بها مع صغار الناس

ونكراتهم كما يرتبط بها مع كبارهم وذوى الشهرة فيهم

ولـكنه خالف هذه العادة يوما على اضطرار ، ودخل الى الجلسة متأخرا عن موعدها ، لأنه كان فى انتظار المحامى الآخر الذى يشاركه فى مرافعات القضية

واذا بالقاضى يغتنمها فرصة ، وينطلق فى درس عنيف يمليه على جناح فى آداب المحافظة على المواعيد

ويشاء القدر أن يكون المحامى الآخر ابن القاضى نفسه ، وان يكون هو علة التأخير الذى استوجب ذلك الدرس من القاضى الجليل

ويدع جناح قاضيه الجليل بفرغ جعبته لتكون السخرية بعد ذلك ابلغ واوقع ، وينتهى القاضى من درسه فيسمع من جناح : « ان هذه الدروس لو القيت مبكرة فى بيت القاضى لما سمعناها اليوم فى قاعة الجلسة ، لأن ابن حضرة القاضى هو الذى تأخر عن موعده ، وهو الذى استحق هذا الدرس بعد الأوان »

ودعاه حاكم الهند الى مجلس يعقده فى «سملا» للمشاورة والاتفاق على حل من حلول القضية المعضلة ، فلما وصل الى المحطة ولم يجد هناك مركبة الحاكم العام فى انتظاره كما انتظرت المهاتما غاندى من قبل عاد ادراجه ولم يحفل بما عسى أن يصنعه الحاكم المتحكم هناك فى الزعماء والشعوب

□

وقد تعود الناس من الزعماء ان يتملقوا الجماهير وهم يترفعون عن تمليق الملوك ورؤساء الحكومات

لـكن القاعدة هنا لا شذوذ فيها ، فلا تمليق للجماهير ولا متابعة لها فى غرورها ولا احتيال على مرضاتها فى غير مايرضى الحق والمصلحة القومية ، ويشهد بذلك خصومه الذين يخلقون المثالب ان لم يجدوها ويهمهم أن يصموه بوصمة الشعوذة السياسية او الاجتماعية لو عرفوا سبيلا الى وصمة يلصقونها به من هذا القبيل

قال « الان كامبل جونسون » فى كتابه عن مهمة اللورد مونتباتن فى القضية الهندية ، وكان مؤلف الكتاب من مديرى مكتبه ومن اقرب الناس صلة بزعماء الهندورؤساء الحكومات فيها :

« كان غاندى مطبوعا على غريزة مدهشـــة تلهمه بث الأفكار بين الجماهير تعززها اجتماعاته بهم مباشرة فى مجامع الصلوات التى يشجعها كما تعززها مخالطته الواسعة للناس فى جميع مناحى الحياة . اما جناح فهـو على خلاف ذلك يستمد نفوذه من القيادة على بعد ، فهو لايتزلف للجماهير ولا يكثر من مخالطتها ، وقد مزج بين التدبير المرن المصقول فى حزم ودقة وبين القدرة على الانتفاع من اغلاط خصومه بارادة من حديد ونفاذ الى الغاية الموحدة التى لاينحرف عنها ، وانه لظاهرة فذة فى القضايا الـكبرى : نادى بالباكستان وهو فى الستين وحققها وهو فى السبعين »

سمعنا كثيرا ان الجماهير تؤخذ بالتمليق والخداع وانهـا تحب التغرير والمغررين ، ورأينا كثيرا مصداق هذا الذى سمعناه ، ولـكن التاريخ يعرض لنا حينا بعد حين زعامات تصارح الجماهير ولا تنخذل ، بل زعامات تنجح لأنها تبده

الجماهير بالزجر والملامة ، وكانت زعامة جناح واحدة من هذه الزعامات النادرة فى القرن العشرين

وصحيح أن قضية الباكستان قضية سبقت الى الهام الجماهير ولم تسبق الى تفكير الساسة وروية الزعماء ، وصحيح أنها من أجل ذلك كانت فى غنى عن تكلف التمليق والتزويق لاثارة شعور الشعب وتحويله من الشك فيها الى الايمان بصدقها وضروراتها ، ولكنها على كل هذا كان من الممكن ان تؤول الى زعامة رجل يعالجها بالمداهنة والمخاتلة ولا تلومه الجماهير على ذلك ، بل لعلها تبتهج به وتمحضه الحب والاعجاب ، فاذا كان لطبيعة القضية فضل فى سلامتها من آفة الدعوات الشعبية فلا نكران لفضل الزعيم الذى مارس قيادتها بوحى طبعه واستطاع بالصدق والصراحة ما كان غيره عاجزا عنه بغير التمليق والتزويق

واشرف من الكرامة التى تواجه الافذاذ المسيطرين كرامة تواجه الملايين وعشرات الملايين ، أو تواجه الغرائز التى لاتعرف فى كثير من الأحيان عقلا غير عقل الطوفان والبركان

استقلال الرأى

اما استقلال الرأى ، وهو أحد الخصال التى تتجلى فيها ثقة جناح بنفسه ، فهو على الدوام صنو الكرامة ، أو لعله نسخة نفسانية اخرى للكرامة بعنوان آخر ، فان الرجل الذى يشعر بكرامته يترفع عن مقام الذنب التابع لغيره ويضن بها أن تمحى فى غمار الآراء والأهواء ، ويحذر الهوان والضعة أشد من حذره الغضب والخسارة

فاستقلال جناح برأيه غير مستغرب مع عزة نفسه

والاعتداد بكرامته ، ولكنه قد أوتى فى مزاجه المطبوع أسبابا كثيرة من أسباب الاستقلال بالرأى والجرأة على مخالفة الآراء الشائعة ولو بلغت مبلغ الاجماع

ومن مفارقات العظمة ما هو عجيب يناقض المألوف ، ولابد أن تكون العظمة عجيبة مناقضة للمألوف ، ولكن الأعجب من كل عجب ما يناقض المألوف فى بنية الجثمان ، ويكاد ان يكون بدعا فى تركيب الأمزجة والأعصاب ، وكل من عاشر جناحا وتابعه فى تفكيره قد فوجىء بأعجب الاعاجيب فى هذا الباب

قال « جون جنتر » صاحب الكتب العالمية عن داخل اوربا وداخل آسيا وداخل أمريكا انه لا يبالغ اذا قال أن جناحا هو انحف رجل رآه ، وقد رأى العالم المعمور كله أو كاد

ونظرة الى صورة جناح فى اية صفحة من صفحات الصور تؤكد هذه الملاحظة وتسمح لكل قارىء أن يقول ما قاله جنتر بالقياس الى أهل جيرته وأهل بلاده . فالحق أننا لانذكر اننا عبرنا فى مقابلاتنا ومشاهداتنا برجل انحف من القائد الاعظم كما رأينا فى صوره ، وقد رأينا منها العشرات بين سن العشرين وسن السبعين

هذا الرجل النحيف لابد ان يكون قصبة فى مهب الريح

هذه الاعصاب الدقيقة لابد ان تكون ثورة دائمة وأوتارا تهتز بلمسة من اصبع أو نفخة من هواء

هذه البنية النحيلة لابد ان تذهب بها صيحة وتعود بها

صيحة اخرى ، ولابد ان تقضى أيامها نهبا مقسما بين الاندفاع والارتجاع

اهى كذلك فى الواقع ؟

أكان الرجل عصبيا بالمعنى الذى نقصده حين نتكلم عن العصبيين ؟

ان القارىء ليحسب انه يهنىء نفسه بالاعتدال والانصاف اذا قال بعد تردد : كلا معاذ الله ... هذا رجل قمين ان يضبط اعصابه ويكبح جماحه نزولا على مطالب الزعامة ومقتضيات السياسة ... ولكنه لايكاد يعلم الحقيقة عنه حتى يعلم ان وصفه بهذه الصفة اجحاف وخطأ . فان اعصابه لم تخنه قط حتى يحتاج الى ضبطها ، ولم يكن ممن يجمحون فيعوزهم كبح الجماح ، وقد ينتفض غضبا اذا قوطع او خوطب بما يمس كرامته ويخل بوقاره ، ويفوه بالعبارة حينئذ فيبدو من كل كلمة فيها انها عبارة لايقع عليها رجل غيره الا بعد روية ساعات

لقد كان جناح من أولئك الذين يعنيهم الانجليزى حين يقول عن رجل انه بارد cold ويريد بذلك انه متحفظ غير متعجل ، ومن أولئك الذين يعنيهم الشرقى حين يقول عن رجل انه رصين مكين

وصفه بذلك الانجليز الذين لا يتطوعون بمدحه والذين اشتهروا بانهم هم انفسهم « باردون » ، ووصفه بذلك خاصة تلاميذه الذين يتسابقون الى تعظيمه واغداق الثناء عليه

تناول العشاء هو وشقيقته فى قصر الحاكم العام ، فلما

خرج سأل أمين الحاكم العام رئيسه فقال كالمستغيث : « يا الهى . انه شديد البرود . اننا قضينا معظم الوقت فى محادثتنا لتذيب الجليد الذى بيننا وبينه »

ولم يشعر تلاميذه واعوانه بحاجة الى نفى هذه الصفة او بحاجة الى ان تساق فى عرض احاديثهم مساق الاعتذار ، بل اثبتها بين مناقبه كل من الفوا الكتب او عقدوا الفصول فى ترجمته وسرد حوادث سيرته من أولئك التلاميذ والأعوان

وتكلم عنه أحد عارفيه من الهنود ـ وهو السير جهانجير Jehangir فقال : « لا شىء يحيد بجناح عن جادته حيث يعتقد انه سالك سبيل الحق والاستقامة والانصاف ، وليس ثمة مقدار من المعارضة ولا من التهديدات والمخاطر يثنيه عن وجهته . انه رجل ممتلىء بالشجاعة والصلابة ، وان قليلا من رجال الهند قضوا فى الحياة العامة زمنا أطول من الزمن الذى قضاه فيها جناح ، ولا أبالى ان أقول انه ما من أحد يجسر على اتهامه بأنه كان فى يوم من الأيام طالبا لمنفعة أو دوارا مع الغرض ، ومثل هذا الرجل اندر من الندرة فى الحياة العامة »

وقال هندى آخر هو السير شانكام شيتى Chetty « انه ذو استقلال لامثنوية فيه »

ونوقش هو فى هذه الخصلة فى كلام يشبه العتاب فقال : « اننى رجل أهتدى فى عملى بتفكير الدم البارد cold blooded والمنطق والمرانة القضائية »

وتكلم مرة عن العناد والعزيمة فقال انهما صفتان مختلفتان، وأصاب فى التفرقة بينهما ، لأن العناد صفة يستحب الرجوع

عنها . أما الرجوع عن العزيمة فهو عجز ونكول

ولعله كان من اللازم لتصحيح الآراء الشائعة عن «العصبية» أن ينبغ فى العصر زعيم بهذه النحافة المفرطة ، ليفقه الناس أن الأعصاب قد تكون متينة هادئة كما تكون مرهفة متوفزة ، وأن الحلم قد يصاحب النحافة ولا يجتمع مع الجسامة فى بنية واحدة ، بل يكون الاضطراب والارتجاج على قدر ما فى البنية من لحوم وشحوم

وظاهر أن هذا الاستقلال الجبار قد كان مفصلا عن قدر أمة كبيرة لا على قدر رجل واحد ، أو هو قد كان مفصلا على قدر زعامة عظيمة ، وكل ما كان لزعامة عظيمة فهو لأمة كبيرة ، لأن عمل الزعماء عمل أمم يتوقف عليه مصير الملايين فى حاضرها ومستقبلها ، فهو استقلال فى الرأى لايشبهه كل استقلال

لقد كان هذا « الشخص النحيل » يقف وحده متفردا برأيه بين مئات من قادة البراهمة والمسلمين ، يزحزحها ويستطيع أن يزحزحها عاجلا أو آجلا ، ولكن هذه المئات لاتستطيع أن تزحزح ذلك « الشخص النحيل »

لقد كان يخالف الهند كلها ويبرح الهند كلها الى حين . أما أن يرجع أو ينثنى غير مقتنع ولا طائع فذلك هو المهرب الذى لايفهمه ولا يخطر له على بال

ويبدو لنا أننا اذا عرفنا انسانا بالكرامة واستقلال الرأى وقوة الشكيمة فقد عرفناه بالعزيمة الماضية ، وبخاصة حين نعرف عنه كذلك أنه منزه عن الغرض ، برىء من المطامع

وقوانين المادة هنا تسعفنا كما تسعفنا خصائص الروح

وسرائر الضمير . فان المادة اذا انطلقت لم تقف الا بموقف يعترضها فى طريقها ، وماذا فى جناح ـ ماذا فى داخل نفسه القوية ـ يثنيها عن عزيمتها بعد أعمال الرأى فى هدوء وبصيرة ؟ لايثنيها الا المهانة وهى لاتقبل المهانة ، والا الغرض وهى منزهة من الغرض ، والا الضعف وهى من الضعف براء

ثقة الناس به

ان الثقة تعدى ..

وهذه الثقة من جناح بنفسه ورايه هى التى سرت منه الى نفوس الجماهير ، فجلبت اليه ثقة الجماهير ، بغير مساومة وبغير اقتفاء ، وبغير احتيال

نعم ان الثقة تعدى ، وقد أعدت ثقة جناح بنفسه نفوس اتباعه ورعاياه فأسلموه مقادهم ، مطمئنين الى عزمه ، كاطمئنانهم الى حكمته وحكمه

بيد أن هذه الثقة التى امتلأت بها نفوس امة كاملة كانت لها فى تلك النفوس دواع غير التى استمدتها من نفس قائدها

كانت سمعته العالية بالامانة والاستقامة أكبر دواعيها ، وقد ذاعت سمعته بالأمانة والاستقامة منذ ذاعت له سمعة

لبث جناح ثلاث سنوات يشتغل بالمحاماة وينتظر الشهرة على مهل ، ولم يقبل ان يتعجل الشهرة على ألسنة السماسرة والوسطاء كما يفعل المحامون المبتدئون ، وقد كان فى الشهرة يومئذ رزقه ومنزلته ورزق أهله ، لأنهم كانوا فى ذلك الحين قد فقدوا معظم الثروة التى توارثوها منذ أجيال

ولما تسامع الناس بالمحامى الناشىء شيئا فشيئا علم رجال الدولة ان هاهنا سياسيا مقبلا قد يكون مصدرا

للمتاعب فى وقت قريب . اذ جرت العادة عندهم ان المحامى القدير والخطيب اللسن لن يطول به العهد حتى ينتقل من الكلام أمام القضاء الى الكلام على منصة الراى العام ، فأغروه بوظيفة حسنة لم يلبث أن استقال منها وحرم على نفسه الوظائف بعدها ، لأنها تفرض عليه من القيود ما لا يطيق

وشاع عنه انه لا يقبل قضية باطلة ، وانه لا يرفض قضية عادلة ولو كانت الأسانيد فيها خفية والمتاعب فيها مجهدة ، وجعل دأبه أن يأخذ مكافآته كلها سلفا لأنه كان ينزل فى أول الأمر عن مؤخر المكافأة اذا ماطله صاحب القضية والجاه الى المطالبة والمقاضاة . وكسب فى بعض مرافعاته قضية كان صاحبها يائسا من كسبها ، وكان من ذوى الثراء الذى يحصى بالملايين ، فأرسل اليه هبة سخية فوق المكافأة المتفق عليها ، فردها اليه

وعرض عليه أحد التجار الكبار عشرة آلاف روبية للمرافعة فى قضية ، ولاح له من ضخامة الاوراق فى ملف القضية انها تستغرق منه وقتا يشغله عن قضاياه الأخرى ، فاعتذر لصاحب القضية ، وألح عليه الرجل لشكه فى استطاعة محام غير جناح ان يحسن الدفاع عن حقه ، وقال له : راجع الأوراق حتى تنفد المكافأة ولك بعد ذلك أن تتوقف عن القراءة ، وكان جناح يقدر المكافأة بالساعات التى تشغلها القضية فى أيام العمل ، فلما فرغ من مراجعة الاوراق وجد أن حسابه لايزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة روبية ، فرد الى الرجل المذهول بقية العشرة الآلاف ، وقد كان يراها اقل من جزائه !

ومن الناس من يثبت امام اغراء المال ويضعف أمام اغراء اللقب أو الوظيفة ، ومنهم من يثبت أمام اغراء اللقب والوظيفة ويضعف امام اغراء السطوة والسلطان ، ولكن الفتن النفسية التى امتحن بها الرجل قصدا أو على غير قصد قد ابرزت منه معدنا يثبت على كل اغراء ، فلا المال يفتنه ولا اللقب يستهويه ولا السطوة تعجبه او تكبر فى نظره ، وربما كانت سطوة تترامى عليها مطامع الابطال من اشداء الرجال

نودى به « شاهنشاه » الباكستان فامتعض ووقف فى سيارته يوبخ الهاتفين له بهذا اللقب ، ويقول لهم ان خير ما يرجوه ان يكون خادم الباكستان ، لاسيد الباكستان

وعرضوا عليه ان يولوه رياسة الدولة مدى الحياة فانكر هذا المبدأ ، واقام القاعدة لمن يليه الا رئاسة مدى الحياة

وعرض عليه حزب المؤتمر قبل ذلك ان يختاروه رئيسا دائما للمؤتمر ، فقال لهم انهم اذا قبلوا آراءه التى يخالفونه فيها ويخالفهم فهو سعيد بأن يظل عضوا كغيره من مئات الأعضاء

وكانت الدولة البريطانية تلوح له بالألقاب العليا وتنتظر منه ان يطاطىء قليلا ليظفر بها ، ولكنه لم يأبه لها قط ولم يزده هذا التلويح الا استرسالا فى الخطة التى ارتضاها ، وسنحت للورد ريدنج فرصة عارضة للايحاء بهذا الاغراء الى قرينة القائد الأعظم فسألها : الا تريدين أن تكونى يوما لادى جناح ؟ قالت : لو قبل هو أن يكون سير جناح لكان هذا بينى وبينه علامة الافتراق

ويتحرج الرجل من الشبهات حيث لا موضع للتحرج

لولا الحرص على القدوة الواجبة . فقد وصف له الأطباء فى أخريات أيامه مسكنا صالحا لعلاجه وحذروه من المسكن الذى يقيم فيه ، ووجد المسكن الصالح فى حوزة رجل من ذوى المرافق الواسعة ، فأبى ان يسكنه بأجرته مخافة ان يكون مالكه متورطا أو أن يدينه السكن فيه بمعروف يجزيه من سلطانه فى الدولة

لقد كان القائد الأعظم بحق فوق الشبهات والظنون ، ولم يستطع خصومه أن يظنوا به علة يتعللون بها لتفسير شدته فى مطالبه أو مطالب قومه الا أن يقولوا عنه انه رجل واسع المطامع . ومن نجا بمثل هذا الظن الذى يقوله كل قائل عجز عن حصر التهم والعيوب فقد سلم ، لانه ظن يقال او لا يقال على حد سواء

ومما قيل عنه ، ولم يكن قائلوه فى معرض الثناء وحسن النية ، أنه رجل عملى واقعى مفرط فى الواقعية . وأنه لعملى واقعى ما فى ذلك جدال ، ولكن اذا كان المراد بالعملية الواقعية انها نقيض المثالية فهو خطأ مردود بغير مشقة ، فان العقل الذى يخلو من النزعة المثالية لايؤمن بقيام دولة أجمع خبراء السياسة والاقتصاد والاجتماع على استحالتها ، وصرح بعض معارضيه أنهم يسلمون له مطالبه ليشهدوه عجزه ويسمعوا منه اقراره بخطله . انما كان جناح عمليا واقعيا لأنه كفؤ للعمل وكفؤ لتقدير الجهد الذى ينجزه ، ومثل هذه الكفاءة تنقل المثالية الى عالم الواقع ، ولا تلغيها من العقل الفعال ، فانما يفعل على مثال حيث يقنع غيره بالنظر الى المثال والعكوف على أحلام الخيال

المرحلة الثانية

سياسة القديس وسياسة القائد

بدأت سنة ١٩١٥ بمرحلة جديدة فى حياة جناح العامة كما أسلفنـا فى ختام فصل سابق ، وهى المرحلة التى وضح فيها لجناح أن هيئة المؤتمر لا تكفى وحـدها لخدمة القضية الهنـدية ، وان الاعتماد عـلى هيئتين اثنتين أمر لا مناص منه فى هذه المرحلة

لكن رد الفعل الذى طرأ من جراء هذا التحول لم يتجـه بتفكير القائد الأعظم أول الأمر الى التباعد وتوسيع الشقة بين الهيئتين ، بل كثيرا ما كان رد فعله اجتهادا فى التوفيق والتقريب ومبالغة فى الاغضاء والمسامحة رأبا للصدع ومنعا للفتنة وتوتر الاعصاب من الجانبين ، فاحتمل جناح فى هذه المرحلة ما لم يكن يحتمله من قبل وفعل ما لم يكن يفعل ، وأيد أشد الغلاة فى موقفهم أمام الدولة البريطانية ومنهم أتباع طيلاق الذى كان يجهر بأن الحركة القومية فى الهند تحارب الدخلاء الهنود ، ويعنى بهم المسلمين ، كما يحارب الدخلاء الانجليز

وظل البراهمة الى سنة ١٩٢١ يهتفون باسم رسـول الوحدة جناح ويعترفون له بالفضل فى التوفيق والتقريب ، وأعربوا عن اعترافهم هذا ببناء قاعة فى بمباى أطلقوا عليها اسم قاعة جناح ونقشوا على حجر الأساس فيها عبـارة فحواها ان هذه القاعة « بنيت تقديرا للسيد جناح اعترافا

بخدماته الخالدة لقضية الهند فى سنة ١٩١٨ » وافتتحتها الشاعرة الهندية سروجينى نايدو وأبرقت اليه وكان فى باريس تقول : «لقد عرفت الأمة فضل الرسول فى حياته»

وقد لبث جناح سنوات طوالا بعد سنة ١٩١٥ وهو يلخص وظيفة العصبة الاسلامية باقتداره المعهود على تحديد العبارات فيقول لمن يناقشه فى وجودها : « اذا كان المؤتمر هو حكومة المستقبل فالعصبة هى المعارضة الدستورية التى لابد منها ولا ضير فيها »

غير ان الخلاف ـ كما ألمعنا فى هذه الصفحات آنفا ـ لم يكن مداره كله على الضمانات الاسلامية ، بل كان مع هذا وأهم من هذا ـ خلافا بين عقليتين ومنهجين ومزاجين : كل خلافا بين سياسة القديس النبى وسياسة القائد العامل ، سواء فى القضية الهندية العامة أو فى قضيتى البرهميين والمسلمين منعزلتين

كان غاندى يبشر بمقاطعة الصناعة العصرية ومقاطعة المدارس ومقاطعة الوظائف ، ويحارب الانجليز «بالاهمسا» ويفرضها جاهدا على أتباعه وهم يعملون بها تارة وينقضونها تارة أخرى

وكان جناح يؤمن بأن مقاطعة الصناعة ضربة للحياة الاقتصادية فى الهند تصيبها كما تصيب بريطانيا العظمى ، بل ربما كانت الاصابة الهندية أفدح وأخطر من الاصابة البريطانية

وكان يقول ان اقامة مصنع جديد الى جانب المصنع القديم أنفع من ألف مغزل فى المدينة والقرية ، واذا لاحظنا أن

المصانع الهنـدية كانت ، أو كان معظمها ، ملكا للبرهميين دون المسلمين ، تبين أن الرجل انما كان ينظر الى مصلحة الجميع ولا يقصر نظره فى مناهضـــة غاندى على مصـــلحة المسلمين

وكان يسأل : ماذا يصنع الطـالب اذا لم يتعلم ؟ وماذا يفيد الهند من اخلاء الدواوين من الوطنيين وتسليمها جملة واحدة للغاصبين ؟

وقال غير مرة انالزعامة السياسية قدوة يأتم بها الاتباع والمتعلمون ، فهل من الممكن المعقول أن يصبح الهنود كلهم أنبياء قديسين كالمهاتما غاندى ؟ وهل ينفع الهند أن يصبح أبناؤها جميعا على هذا الغرار فى السياسة القوميةوالمعيشة اليومية ؟

وصواب جنـــاج فى نظره كصواب غاندى فى نظره : كلاهما مستمد من صميم وجدانه وصدق ايمانه ، ولم يكن الرجل ممن يغالطون أنفسهم فى الحقيـــقة التى تثبت فى ضـــمائرهم أو يستبيحون مجاراة التيـــار وكسب الرضى بالمجاراة والمداراة ولو أجمع النـــاس ما عداه على مجاراته ومداراته

وقد أجمع النـــاس فعلا فى ابان حـــركة المقـــاطعة وحركة الخلافة على مذهب فى العمـــل السياسى لا يرتضيه فوقف وحده يناضل ويقاوم حتى أعياه اقناع الرأى العام وثنيه عن جماحه ، فهجر الهند وأقام فى انجلترا معولا على الاشتغال فيها بالمحاماة والانقطاع عن السياسة حتى يثوب المختلفون الى رأى يقبله ويؤمن بجدواه

ولقيه الاستاذ البيرونى صاحب كتاب «صانعى الباكستان» خلال هذه الفترة وهو مقيم فى انجلترا سنة ١٩٣٢ فقال له وهو يحاول أن يستعيده الى ميدانه : « وما العمل ؟ ان البرهميين قصار النظر ولا أمل لى فى اصلاح أخطائهم ، والمعسكر الاسلامى ممتلىء بأولئك الخلائق التى لا عظام لها والتى تقول لى ما تقول ثم تبادر الى صاحب السلطان لتسأله عما ينبغى أن تعمل ؟ »

وطفق المسلمون يبحثون عن قائد ، وطفقت الدعوات اليه تتوالى لاستعادته الى نشاطه ، حتى عن له من أشتات المعلومات التى تبلغه أن العمل ممكن على منهاجه، وأن الأمة الاسلامية قطيع بغير راع ، فاستخار عزمه وقفل الى بلاده تلبية لصوت الواجب أو صوت التبعة الكبرى التى استقرت على كاهله دون غيره ، فرجع على شيء من الأمل ، ونفض عنه وساوس التردد والقنوط

كان الزعيم محمد على قد فارق الدنيا ، وكذلك الزعيم محمد شافعى الذى طالت رعايته للعصبة وبذل ما بذل فى حياته لاستبقائها ولم شملها ، وكان الزعيم « اقا خان » يلتفت الى الهند مرة ويلتفت الى مصائف أوربة وميادين السباق فيها مائة مرة ، وكانت العصبة فى غيبة الرؤوس الصالحة على وشك الانحلال فأجمع أعضاؤها (فى سنة ١٩٣٤) على اختيار جناح رئيسا لها مدى الحياة وهو مقيم بانجلترا ، فاضطر الى العودة وصفى أعماله وروابط معاملاته ، وهى ليست بالقليل

ولم تمض أيام على تسلمه مهام الرئاسة حتى شعر أعضاء العصبة ومن يعملون معها بدم جديد يسرى فى أوصالها ، وتحرك الجواد الذى قيل قبل ذلك انه جواد ميت يلهبون جلده بالسياط ، وعلم فىأرجاء الهند أن هناك قوة جديدة يحسب لها حساب بعد أن لم يكن لها حساب

ان هذه العصبة أنشئت بأموال الاغنياء ، ولم يكن من ذلك بد فى أول الأمر ، لانها أنشئت لتقابل دعوة المؤتمر الهندى بدعوة مثلها ، وليست مواردالمؤتمر باليسيرة لكثرة أعضائه وكثرة المشتركين فيه من أصحاب الملايين ،فأصبح لزاما على أعضاء العصبة أن يوفروا لها المال وأن يضاعفوا رسوم اشتراكها ويعتمدوا على تبرعات المتفضلين من أنصارها ، فنفعها هذا السخاء من حيث ضرها ، نفعها بما وفر لها من الموارد وضرها بالعزلة بينها وبين سواد الشعب من الفقراء وأصحاب الرزق المحدود ، وأوشك أن يقوم بينها وبين الشعب سد من سوء الظن وحاجز من الوحشة والجفاء لهذه العزلة التى كانت فى مبدئها عزلة اضطرار لا عزلة اختيار

وفطن جناح لهذا النقص فأسرع الى تلافيه وأعانه على ذلك تقدم الشعب فى فهمالهيئات السياسية وتنظيمالعلاقة بها ، فعدل دستورها وجعل الاشتراك فيها حقا مباحا لكل من يؤدى رسمه الصغير ولا يزيد على عشرة مليمات ، وبث الدعوة لها فى الاقاليم ونشر فيها لجانها الفرعية والمركزية، وبذل غاية وسعه للتفاهم مع الجماعات التى طال العهد على تأسيسها وعز عليها أن تفاجئها العصبة فى هذا الدور

الجديد بمنافستها القوية ، ولم يحجم عن التفاهم مع المؤتمر وتبادل المساعدة معه فى الانتخابات التى يعول مرشحوه فيها على المسلمين ولا يخشى من منازعتهم لأحد من المسلمين فى دوائره

واتبع فى ادارة العصبة نهجا ديمقراطيا يؤازره نهج دكتاتورى صارم عند اللزوم . فاذا أنس من بعض الاعضاء اعتراضا أو سمع منه نقدا جمع المجلس وبسط فيه موضوع الاعتراض أو النقد للمناقشة فى صراحة وسماحة ، وقد تطول المناقشة ساعات وتؤجل من جلسة الى جلسة حتى تتقارب وجهات النظر أو يقر المعارضون رأى الموافقين

فاذا لزمت الصرامة عمد اليها فى حزم وسرعة كائنا ما كان مقام الاعضاء أو غير الاعضاء الذين استوجبوا تلك الخطة الصارمة ، ومن ذاك أنه أسرع الى فصل كل وزير مسلم قبل الوزارة بغير اذن العصبة ، وكلهم من أصحاب المقامات والاخطار الكبار ، ولما نوقش فى قراره قال ان الشعب الاسلامى لم يطالب بحقوقه لتفرض عليه «السلطة» مرشحيها وتحسبهم عليه نوابا يعملون بمشيئته ويستمتعون منه بالثقة والتأييد ، ولكنه طالب بتلك الحقوق ليختار من يشاء ولا يترفع أحد عن الرجوع اليه قبل ولاية الحكم الذى يستمده منه ويجريه عليه

وقد ينصح وهو يعنى الأمر المطاع اذا خولفت النصيحة . ويروى عنه ان رجلا من كبار المسلمين زاره بعد زيارة الاقاليم الاسلامية فسمع غاندى بأخبار هذه الزيارة وأرسل فى دعوته للقائه وصرفه عن مقاطعة المؤتمر ومطاوعة العصبة

فى تنفيذ برامجها ، فاطلع الرجل جناحا على الدعوة وسأله رأيه فيها ، فلم يصانع جناح ولم يداور فى الجواب بل قال له فى كلمات موجزة : « خير لك ألا تذهب »

قال الرجل : « أنصيحة هى أم أمر ؟ »

قال جناح : « ان لم يكن بد فليكن أمرا ، ولتعلم بعض المحظور الذى أخشى منه عليك منذ الخطوة الأولى ... انك ستذهب الى غاندى فيتلقاك بتحية البراهمة مضموم الكفين، ويدعوك أدب المجاملة أن ترد تحيته بمثلها ، فاذا بالصحف تنشر لك صورتك على هذا النحو ولا تنشر معها صورة غاندى ، واذاً بهذه الصحف متداولة بين جماهير المسلمين ممن يفقهون ولا يفقهون ، فيريبهم من رئيس مسلم أن يحكى البراهمة فى تحياته ولا يعلمون عنها الا انها تحية مختارة ومحاكاة مقصودة ، ولا تدرى أنت ما يتهامس به الشعب وما يضاف اليه من الحواشى والاشاعات حتى تهم باصلاحه وتوضيحه ، وقس على هذه المناورة مناورات مثلها لا حاجة بك أن تستهدف لها وتبتلى بسوء أثرها »

قال جناح : « وأما وقد علمت الآن شيئا من أسباب النصيحة التى حسبتها أمرا فارجع اليها واحسبها نصيحة ان شئت قبلتها وان شئت أعرضت عنها »

قال بلوتارك أستاذ التراجم والسير فى الأدب الاغريقى القديم : « ان كلمة أو نكتة تروى عن العظيم قد تنم على ملكات له وأخلاق لا تنكشف للناس من روايات الفتوح والخطوب الجسام »

ونصيحة جناح تلك كافية لجلاء ما طبع عليه من الحزم

والدهاء والفطنة لحيل الخصوم وأطوار الجماهير

ولقد ظهرت يد جناح فى تنظيم العصبة وجذب الأنصار اليها ظهورا مفحما فى الانتخابات الثانوية التى أجريت ما بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٢ ، فان العصبة نجحت فى ست وأربعين دائرة من ست وخمسين ، ولم ينجح من مرشحى المؤتمر المسلمين غير ثلاثة نواب ، وبقية الناجحين من المستقلين

وأذيع احصاء عن عدد المشتركين فى العصبة سنة ١٩٤١ فبلغوا مليونا وتسعة وثمانين ألفا ، وهو عدد يقارب عدد المشتركين فى المؤتمر على قدمه وضخامة موارده ، ولم يكن أعضاء العصبة يزيدون فى سنة ١٩٣٩ على ستمائة ألف من المشتركين ، وهو مع هذا عدة أضعاف المشتركين قبل ذلك بأربع سنوات

أما « المشروعات » والدساتير التى عرضت على العصبة لتسوية القضية الهندية فى أيام رئاسة جناح فهى متعددة لا فائدة من الاسهاب هنا فى تفصيلها ، بيد أن المهم منها هو مشروع الحكومة الاتحادية « الفدرالية » الذى عرض للتنفيذ فى سنة ١٩٣٥ وكان منذ فترة قريبا الى القبول مع تنقيح بعض نصوصه ، فلما عرض فى سنة ١٩٣٥ رفضه المؤتمر ورفضته العصبة ، وعلة رفض العصبة له صلابة المؤتمر فى مسألة المرشحين ورفضه لكل مرشح فى الاقاليم لا ينتمى الى المؤتمر ، ثم حصر السلطة العليا فى أمور الدفاع والسياسة الخارجية والخزانة بين يدى الحكومة المركزية ، وأقوى من هذا وذاك سوء الظن الذى فشا بين المؤتمرين

والعصبيين خلال السنوات الاخيرة ، فانه جعل استقلال الحكومتين حلا وحيدا لا محيص منه ولا طاقة لأحد بتعديله، ومن البديهى أن المؤتمريين لم يتشبثوا بالوحدة الى اللحظة الاخيرة عشقا لطلاب الانفصال وحرصا على استبقائهم ، ولكنهم تشبثوا بها لانهم أصحاب الكفة الراجحة فيها

على أنه من الثابت ان العصبة لم تتبع خلال الفترة من المناداة بالتقسيم الى تنفيذه خطة من الخطط فى مسألة كبيرة أو صغيرة ترمى بها الى احباط الاستقلال وتغليب البريطان على البراهمة ، فكل برامجها كانت تبدأ وتنتهى بطلب الاستقلال للحكومتين ، أو كما قال جناح بأسلوبه الناصع الساخر : «ان استقلال البقرة رهين باستقلال الباكستان!»

قال المؤلف الكندى رالى باركن Raleigh Parkin فى كتابه « الهند اليوم » وقد ظهر قبل نفاذ التقسيم :

« لا يمكن يقينا أن يقال عن العصبة انها جانحة الى البريطان ، وكثيرا ما تعاونت فيما مضى مع المؤتمر أو كانت على استعداد لمعاونته فى الحركة الوطنية · غير أنها فى السنوات الاخيرة ، وبخاصة منذ أواخر سنة ١٩٣٧ جعلت خطتها التى لا لبس فيها مقاومة المؤتمر ومقاومة البرهميين، ومهما يكن شأنها فى الماضى فاليوم لا ريب أنها أقوى الهيئات الاسلامية فى الهند وأوسعها نفوذا وانه ما من سياسى مسلم يستطيع الآن أن يغفل شأنها »

كذلك لا يجرى فى خلد انسان عارف بتاريخ الهند الحديث أن يتخيل أن تقسيم الباكستان يخدم قصدا أو على غير قصد سياسة بريطانيا العظمى التى تقوم على قاعدة

« فرق تسد » .. فمثل هذا الخاطر يقابله العارفون بتاريخ الهند الحديث بالسخرية والاستخفاف ، لان بريطانيا العظمى كانت تعرض على الهنود حلا بعد حل وتسوية بعد تسوية وتصانع المسلمين حينا والبرهميين حينا آخر فرارا من التسليم بالتقسيم ، ولم يكن أنفع لها ولا أعون لحكامها وساستها أن يدخلوا بالتفرقة بين الأمتين من بقائهم فى دولة واحدة يضربون فريقا منها بفريق كلما شاءت لهم سياستهم أن يحصلوا على التأييد من الفريق الغالب ولو كان خليطا من الأمتين ، وقد لمح بيفرلى نيكولاس صاحب كتاب «حكم فى القضية الهندية» الى تلك الفكرة فأجابه جناح محتدا : « ان الرجل الذى يدور فى خلده هذا الظن لضعيف الثقة حقا بذكاء البريطان بله الثقة بسلامة مقاصدى ، فان الأمر الوحيد الذى يبقى البريطان فى الهند هو الفكرة الزائفة التى تدعى وحدة الهند كما يبشر بها غاندى. وأعود فأقول ان الهند الواحدة اختراع بريطانى ، أو هو أسطورة بل أسطورة جد خطرة ، تجر الى شقاق ليس له نهاية ، وما دام هذا الشقاق قائما فهناك عذر يعتذر به البريطان للبقاء ، وهذا هو الشذوذ فى قاعدة فرق تسد .. »

قال بيفرلى : «اذن أنت تقول لهم : «قسموا واخرجوا» ؟»

قال جناح : « لقد أصبت محزها »

وخرج الصحفى من هذه المحادثة وهو يقول ان القاعدة التى تصدق على قضية الهند هى « وحد واحكم وفرق واخرج .. »

وقد أكد جناح له فى هذا الحديث أن الفهم الصحيح لهذه

الفكرة سهل الورود على ذهن الرجل المخلص ولو كان من البريطان ، فان جون برايت خطيب الحرية فى عهد غلادستون (والوزير الذى استقال من وزارة غلادستون احتجاجا على ضرب الاسكندرية) قال فى احدى خطبه : « الى كم من الزمن تريد انجلترا أن تحكم الهند ؟ ليست الاجابة على هذا السؤال فى وسع أحد ، ولكن لتكن دولة الانجليز فى الهند خمسين سنة أو مائة أو خمسمائة ، فهل يحسب انسان له ذرة من الادراك السليم ان بلادا شاسعة بما فيها من أمم تبلغ العشرين ولغات لا تقل عن العشرين يتأتى أن تضم وتنحاز فى حدود قطر واحد متماسك تدوم فيه امبراطورية واحدة ؟ أعتقد أن شيئا كهذا مستحيل »

وقد أعاد المؤلف خطب برايت الى جناح وهو مؤمن بوجهة نظره ، وجاء الواقع بعد قليل فاقر هذه الوجهة ببرهان ضخم يحسم كل جدل ويفند كل منطق ، وهو نجاح الباكستان

قوة البيان

مهما تكن عناصر القوة فى الزعماء الذين ينشئون الدول بغير السيف فالبيان قوة لاغنى لهم عنها ، وبخاصة فى هذا العصر عصر المؤتمرات والمناقشات والأحاديث الصحفية والردود عليها

لاغنى للزعيم عن قوة البيان ..

ولكن أى بيان ؟..

ليس من المفارقات أن نقول ان كلمة « البيان » لاتبين وحدها فى هذا الصدد ، فان البيان أساليب ، ولكل خطيب

او كاتب بين أسلوبه الذى يكاد يخصه بملامحه وسماه .
وكذلك كان بيان جناح فى دعوته السياسية ، بيانا خاصا به لايشبه بيان أحد من زعماء الأمم فى عصره

كانت خاصة هذا البيان أنه يحسن تلخيص المسائل المعقدة فى كلمات موجزة تعلق بالذهن لما فيها من المفاجأة النافذة : تلك المفاجأة التى يشعر السامع لأول وهلة أنها حلت له العقدة بمجرد التعبير عنها فى وجازة وصفاء

وكانت له مع هذه الخاصة خاصة الجواب المسكت والعرض المقنع ، أو خاصة الضربة السريعة التى يتلقاها المهاجم وقد ظن أنه أصاب الرجل فى المقتل ، فاذا هو المصاب

خطر لى حينا ان جناحا قد استفاد هذا البيان من صناعة المحاماة على نظام المحاكم الانجليزية ، لأن قضاتها يتدربون على تلخيص الأقوال المتناقضة للمحلفين او لأعضاء المحكمة الآخرين ، ويطلب من القاضى فى المحاكم العسكرية على الخصوص أن يجمل الكلام من جميع أطرافه لتبسيطه من الوجهة القانونية

كذلك يحتاج الدفاع فى هذه المحاكم الى القدرة على المساجلة التى يسمونها Cross examination وقوامه كله على الاستدراج وعلى السؤال المفاجىء والجواب السريع

الى أن قرأت فى كتاب « صوت آسيا » حديثا دار بين مؤلفه جيمس ميشنر Michener والآنسة فاطمة جناح شقيقة القائد الأعظم ، فوقع فى نفسى من أسلوب الرد والاقناع فى هذا الحديث أن الملكة التى امتاز بها جناح أقرب الى الطبع الموروث منها الى التعليم المكتسب ،

لان أسلوب الآنسة شقيقته كان نسخة مطابقة لأسلوبه ، مع اختلاف كاختلاف الرجل والمرأة فى ملامح الأسرة الواحدة

قال المؤلف : « شعرت بوخز نقدها حين لاحظت أنه من المستغرب أن جناحا الذى لم يكن من رجال الدين المتعبدين ينشىء دولة ثيوقراطية . فانفجرت قائلة : ماذا تعنى بدولة ثيوقراطية ؟ اننا دولة مسلمة ، وهذا لايعنى أنهـا حكومة دينية ، انما تعنى انها حكومة مسلمين . فماذا تريدنا ان نكون ؟ أحكومة مسيحيين ؟ أحكومة براهمة ؟ اننا لسنا حكومة يديرها قسيسون ولسنا حكومة كهانة . وانما نحن حكومة قائمة على مبادىء الاسلام ، وأقول لك انهـا مبادىء جميلة فى اقامة الحكومات »

قال المؤلف : « واردت أن استعيد موقفى فقلت : ان الذى عنيته أن حكومتكم تعلن ان الاسلام هو دين الدولة الرسمى! فما فهت بها حتى تلقيت طوفانا كانت حملة السؤال السابق مطرة صيف بالقياس اليه ، وتكلمت الآنسة جناح بأسلوب السخرية والاصماء الذى تعوده الناس من جناح فى دفاعه عن الباكستان ، وضحكت وهى تقول : « لاتقل هذا . . فالحكومات جميعا تعترف بدين رسمى هو الغالب عليها . والمسيحية هى الدين الرسمى فى البلاد الامريكية »

وحاولت أن أقول ان هذا غير صحيح كل الصحة ، ولكنها ضحكت مرة اخرى وقالت : لعلك تعثر على تفسير ماهـر يساعدك على انكار الصبغة المسيحية فى حكومة امـريكا ، ولـكن ماذا عسى أن تزعم عن ألوف الجماعات المبشرة التى ترسلونها الى أنحاء العالم ؟ ولماذا تحاول أمريكا ان تحولنا من

ديانة حكومتنا الى ديانتكم ؟ ولماذا تتدخل حكوماتكم بالقوة حماية للمبشرين اذا لم نصبأ باختيارنا ؟

قلت : « ليس هذا هو الواقع ، وعلى فرض وقوعه فحكومتنا لاتؤيد اولئك المبشرين »

فقاطعتنى الآنسة جناح قائلة : « حكاية مليحة ! فمن أين اذن تأتى الأموال التى ينفقها المبشرون لتحويل اهل الهند والباكستان عن دينهم ؟ تقول انها تأتى من الموارد الخاصة . حسن ! فلماذا تبذل الموارد الخاصة تلك الاموال ؟ انها تبذل لأن اصحابها يؤثرون دين بلادهم ، ولا اعتراض لى على ذلك ، وليس لكم كذلك أن تعترضوا على ايثار اهل الباكستان لدينهم . فانما هى بواعث متشابهة فى نفوسنا ونفوسكم »

وقد صدق المؤلف حين شبه اسلوب الآنسة فى الرد والمناقشة باسلوب شقيقها ، فهما فى الحق متشابهان كما تتشابه ملامح الأخ والأخت فى الاسرة الواحدة

كان جناح لايتلجلج ولا يتلعثم اذا فوجىء بالسؤال المحرج، أو السؤال الذى يريد به السائل الحرج ، بل يلاحق السائل بالجواب المسكت الذى يقطع اللجاجة قطع الموسى الرميضة لخيوط الشباك

قال له صحفى انجليزى مرة فى مقام الاعتراض : ولكنك ياسيد جناح كنت يوما عضوا بالمؤتمر . قال : « نعم ، وكنت يوما تلميذا بالمدرسة الابتدائية »

وقال له زعيم هندى يحارب اقتراح الباكستان : « اننا لانفهم ماهذه الباكستان التى تدعو اليها ؟ »

فقال : « ولماذا اذن تحاربها قبل أن تفهمها ؟ » . ولما قيل

له : « انك عجزت عن تأليف وزارة ، فما بالك تطمح الى انشاء الباكستان ؟ » قال : « لكيلا نعجز عن تأليف وزارة ! »

وافتخر عليه « ضحايا » الوطنية بأنهم سجنوا وهو لم يسجن ، فقال : « ان دخول السجن اسهل من العمل السياسى »

واطال فى هذا المعنى فقال : « اننى لا اومن بالبدء فى حركة سياسية سعيا وراء الاعتقال ، وصدقونى انه لايصعب على ان اذهب الى السجن لأقضى تمة ستة شهور او نحو ذلك . وما اصاب السيد غاندى بعد ضرر من سجنه . فقد كان فى أمان بين جدران قصر أغاخان : وكان معه كاتبه ، بل كان معه كل أسرته ، ولكن من ذا يتلقى الرصاص وانا فى معتقلى؟ انهم اخوانى »

وقال فى مناسبة أخرى : « يعيبوننا بأننا لم نضح فى سبيل غايتنا . واخشى أن اقول اننا لانستطيع ان نساهم فى تلك التضحية التى تدرب عليها ساسة المؤتمر : ان نتصدى للزعامة . أن نجلس صابرين تحت سياط الشرطة . ان نذهب الى السجن . ان نشكو بعد ذلك من نقصان الوزن . ان ندبر حينئذ وسيلة الفرج والانطلاق .. كلا . لست اومن بهذا الفن من الكفاح . ولكننى اذا وجب ان اواجه الخطر فلست ابالى يومئذ أن اكون اول من يصمد للنار »

ومن تلخيصاته السهلة قوله عن الوحدة والتقسيم : « ان الوحدة التى خلقها مدفع المستعمر لاتصلح بعد جلائه »

ومنها : « ان الآفة فى سياسة المؤتمر انها تشكو من مركب الزيادة او الرجحان Superiority complex لا من مركب النقص »

واشهر تلخيصاته التى حمع فيها مزايا التقسيم : « ان استقلال الباكستان ضمان لاستقلال البقرة المعبودة » ومثله فى الشهرة تلك الكلمة التى جمع فيها موانع الوحدة : « انهم يعبدون البقرة ونحن ناكلها ، فكيف يحكمنا نظام واحد ؟ »

□

اما بلاغته فى الخطب والرسائل والبيانات فهى من هذه البلاغة الخاصة التى هى على ما راينا أقرب الى الطبع الموروث منها الى التعليم المكتسب : بلاغة ليست من بلاغة التفخيم أو التجميل ، وليست من بلاغة التحليق الى الأعالى أو الغوص الى الأعماق ، ولكنها بلاغة تمتاز بالبساطة والنفاذ السريع ، تلم بأطراف المسألة وتنفذ الى محورها وتترك السامع أو القارىء وهو يحس أنه قد ألم بأطرافها ونفذ من محورها الى الصميم

قال عن الديمقراطية فى الاسلام : « ان الديمقراطية غريبة عن المجتمع البرهمى ، وليس من غرضى أن أتناول مجتمعا كائنا ما كان بغير الاحترام ، ولكن الواقع أن المجتمع البرهمى مقيد بالطائفية منهوك بقيود هذه الطائفية ، وليس للمنبوذين فيه مكان اجتماعى أو اقتصادى أو مكان ما يسكنون اليه

« على أن الديمقراطية فى دم المسلم الذى يدين بالمساواة بين جميع الناس ، وهاكم مثلا من أمثال ، وهو أننى كثيرا ما أذهب الى المسجد ومعى سائقى يصلى الى جانبى ، ومازال المسلمون يدينون بالأخاء والمساواة والحرية

« وبعد فكيف يكون فى مقدور قلة أن تصد كثرة ؟

هذه جراة فى الادعاء . ونحن من ثم لانصد الكثرة ولكننا اهل لان نستقل بحكم انفسنا »

وقال فى ذكرى الشاعر اقبال (سنة ١٩٤٤) :

« انني أحيى فى هذا اليوم ذكرى عزيزة هى ذكرى شاعرنا القومى اقبال : هذه الذكرى التى نحيى فيها اسم الشاعر الحكيم الفيلسوف المفكر العظيم . سلام على روحه فى ساحة الخلود

« اننا لانراه بيننا الآن ، ولكن شعره المقتبس من معدن الخلود يقيم على الدوام معنا ليهدينا ويوحى الينا ، وهو بجمال نظمه وحلاوة لفظه يصور لنا عقل الشاعر العظيم وقلبه فنرى فى هذه الصورة مبلغ اخلاصه لآداب الاسلام

« وما كان اقبال بالواعظ او الفيلسوف وكفى . بل كانت تتمثل فيه مع التفكير والالهام مزايا الشجاعة والعمل والثبات والاعتماد على النفس والايمان قبل كل شيء بالله والاخلاص للدين ، وكانت تتلاقى فى نفسه آمال الشاعر المثالية وسليقة الرجل الذى ينظر الى وقائع الأمور ، وبهذا يتجلى لنا مسلما حق الاسلام .. »

وقال عن دعوة السلام من خطاب فى اغسطس سنة ١٩٣٨ :

« .. فى كل بلد مخرفون يقولون انهم وقوف الى جانب قضية السلام .. وما من شيء أريده كما اريد ان يعم السلام الشامل أرجاء الكرة الأرضية ، فلا يكن فى الدنيا حرب ولا يكن هناك غير الرخاء والأمان . وليس من ناحيتى اعتراض على الغاء الحروب جميعا فى كل مكان ، غير اننا فيما نحن بصدده لاناقش أولئك السادة الموقرين انصار السلام .

فليست المسألة فى رايى مسألة ايمان بالسلام أو كفر بالسلام . لأن المطلوب منا ان ننقذ رقابنا حين يحيق بنا الخطر ، وما يدور فى نفسى لحظة ان اصيب احدا باذى ، وما اريد الا ان اكون انسان خير مفرطا فى الخير ، ولكننى لا اضمن من اجل هذا ان يكون الناس جميعا خيرين والا يكون فيهم احـد يؤذينى او يطوى النية على ايذائى . فليست المسألة سلاما أو لا سلام ، وانما هى دفاع او لا دفاع . هذه هى مسـألة اليوم . وجوابى انا عليها الدفاع .. »

واقترح عليه غاندى ان يجتمعا للبحث فى مشكلة الوحدة والانفصال ، فقال غاندى فى اول لقاء انه ينوب عن نفسه ولا ينوب عن هيئة سياسية ، ولم ير جناح نفعا فى مباحثة يتقيد بها ويقيد العصبة الاسلامية معه ولا يتقيد بها غاندى ولا المؤتمر ، وعلق على ذلك فى خطاب القاه بمدينة بومباى (١٩٤٥) قال فيه :

« انه لايقنع بمهمة المستشار للمؤتمر ولجنته العـاملة ، بل يقيم نفسه مستشارا ناصحا للحاكم العام ومن ورائه الأمة البريطانية ، وتنعقد اللجنة العاملة صباحا ومساء وهو الروح الملهمة وراءها . وهو مع هذا يروقه احيانا الا يمثل احدا فلا يمثل احدا ، ويصبح فردا لاصفة له غير صفته الفردية ، ولا يعتبر فى هذه الحالة عضوا كأولئك الأعضاء الذين يمثلون المؤتمر بحق الدريهمات التى تخولهم الاشتراك فيه ، وينزل بنفسه الى مرتبة الصفر ليستلهم صوته الباطن ... اما اذا راقه ان يكون غير ذلك فهو السيد المطلق فى المؤتمر وهو بهذه المثابة ينوب عن الهند بأسرها »

وعاد الى هذه الدعوى فى اجتماع مجلس العصبة (٢٨ يولية سنة ١٩٤٦) فقال :

« ان مستر غاندى يتخذ من نفسه اليوم مستشارا ناصحا للجميع . يقول ان المؤتمر يمثل الهند بأسرها وان المؤتمر هو الوصى الأمين على ابناء الهند قاطبة . وانها لمرتبة هائلة تلك التى يبتغيها . ولقد كفانا ما ابتليناه من الوصى الأمين الذى تسلط علينا مائة وخمسين سنة ، فما نحب ان نستبدل به وصاية المؤتمر . لقد كبرنا وبلغنا رشدنا ، فلا وصاية على الأمة الاسلامية لغير الامة الاسلامية »

ولم يكن من اسلوبه ان يقابل التهديد بالمزايدة فى التهديد مرضاة لسورة النفوس التى يعجبها هذا الأسلوب . فلما عرض عليه الصحفيون خطاب السردار باتل وسألوه رايه فيه قال : « ان السردار باتل رجل قوى كما وصفوه فلا جرم يعمد الى اللغة القوية . الا ان الكلمات لاتكسر عظما ، فاذا كان يعنى بقوله له : «اننا اعددنا السيف للسيف» انالكثرة ستذبح القلة فى ارجاء الهند فتلكطلعة بشعة . وغاية ماأقوله انه على ما يظهر لايدرك ان كل من يحرض هذا التحريض فهو أعدى الأعداء لكل طائفة .. »

وتصدى له الشيوعيون ليكرهوه على قبول مطالبهم باسم القومية فقال :

« يلوح لى انأمهرطائفة تبثدعوتها هى معشرالشيوعيين . انهم قد أكثروا من الرايات التى يستظلون بها واخالهم يحسبون أن البركة فى الكثرة (ضحك) .... انهم يرفعون الراية الحمراء ، ويرفعون الراية الروسية ، ويرفعون راية

الجماعات السوفيتية ، ويرفعون راية المؤتمر ، ويتفضلون الآن فيستعيرون منا رايتنا راية العصبة الاسلامية ، واذا جمعت فئة كل هذه الرايات معا فمن حقنا أن نتوجس ونحذر . انهم يصيحون يطلبون اتفاقا بين العصبة والمؤتمر ، فسامحهم الله من الذى يطلب غير ذلك ؟ انما السؤال هو : على اى اساس يكون الاتفاق ؟ »

وخطب فى جماعة النساء المسلمات (فى سنة ١٩٤٢) فقال :

« يسرنى ان ارى ان النساء المسلمات يفهمن رسالة الباكستان كما يفهمها الرجال المسلمون . وما من أمة تثابر على طريق التقدم بغير معاونة من نسائها . فاذا كان المسلمات يعاون رجالهن كما صنع المسلمات فى عهد نبى الاسلام فقد وصلنا الى غايتنا »

وقال عن رسالة القرآن . « وصف الانسان فى القرآن الكريم بانه خليفة الله . فاذا أردنا ان نحقق هذه الصفة فأولى ما توجبه علينا ان نتبع مع غيرنا سنة الله مع بنى آدم فى اوسع معانيها . سنة الحب والصبر ، وكونوا على يقين انها سنة عاملة وليست سنة مانعة وكفى

« واذا كنا نؤمن حقا ايمان اليقين والحب فى معاملة خلائق الله من كل قبيل فعلينا أن نتبع هذه السنة فى معيشتنا اليومية وفرائض تقوانا وعبادتنا . ولسنا نرى فى هذا اليوم المبارك ـ يوم العيد ـ علامة على الروح التى اذكاها فى قلوبنا شهر الصيام اظهر من العزم الوثيق على نشر السلام والوفاق فى ديارنا بين انفسنا وبين أصحاب العقائد جميعا فى أوطاننا ،

وان نعمل فى حياتنا الخاصة وحياتنا العامة عملا يتنزه عن الاثرة ويتوخى الخير الأعظم لقومنا ولأبناء آدم اجمعين

« انه مطمح سام عظيم يتقاضانا الجهد والايثار والفداء . واحسبوا حساب الشكوك التى تساوركم فينة بعد فينة ، شكوك لاتنحصر فى النزاع المادى الذى يوزع قلوبكم وقد يسهل عليكم ان تغلبوه بشجاعتكم ، ولكنها شكوك روحية لامناص لنا من مواجهتها ، وليس فى وسعنا ان نروضها غدا اذا اعيتنا رياضتها فى هذا اليوم الذى تخشع فيه نفوسنا لخالقها

« .... واعلموا انه لاغنى فى كل نشاة اجتماعية او حرية سياسية من الاعتماد آخر الأمر على سر عميق فى حياة الانسان ، وارجو ان تعلموا ان هذا السر العميق هو روح الاسلام . فليست الخطب العظيمة ولا المؤتمرات الكبرى هى التى تصنع سياسة الامم . واقول للشبان الكثيرين الذين تعودوا ان يسالونى كيف يقدرون على خدمة بلادهم هلموا يا اصدقائى الفتيان واعذرونى اذا عرضت للسياسة فى هذا المقام ، فانما اعرض لها لأقول لكم اننا جميعا نطالب بالحقوق وندعى الدعاوى فى الهند المقبلة ، فينبغى الا نركب مركب العناد فى السعى اليها ، فان العناد نقيض ما يوحيه الينا هذا العيد من الحب والمسامحة والبركة التى يامرنا النبى عليه السلام ان نبسطها لغيرنا ، وفى وسع كل منا ان يخدم هذا الوطن برياضة النفس وانها لجوهر كل قداسة نحييها فى هذا الموسم . فليسأل كل نفسه : اهو على نظام فى معيشته ؟ أينام فى موعده ؟ ايسير فى الطريق على جادته ؟ ايصون الطريق

عن منبوذاته ومطروحاته ؟ ايخلص فى عمله ويلتزم الامانة فى شغله ؟ ايعين غيره بما فى وسعه ؟ ايعامل غيره بالصبر والسماحة ؟... هذه أمور قد تبدو صغارا وهى على هذا نواة كل نظام كبير القيمة فيما تتضافر الطوائف جميعا على ادخاره لخدمة وطنها ، خدمة هند أعظم واعلى . وربما كانت خدمات لاتبرز صاحبها فى أضواء السياسة ، ولكنها تكفل لكم سلاما باقيا فى قلوبكم كلما شعرتم انكم قد أديتم حصتكم لتيسير السياسة كلها .. »

وكان من دابه أن يذكر سامعيه وتلاميذه بحكمة هولندية هذه ترجمتها :

« ضاع المال .. لم يضع شىء

« ضاعت الشجاعة .. ضاع شىء نفيس

« ضاع الشرف .. ضاع أنفس ما نملك

« ضاعت الروح .. كل شىء ضاع »

هذه نتف متفرقة من كلمات جناح فى معارض شتى ، نحسبها نموذجية فى التعريف بخصائص بيانه ، وهو وسيلة من وسائل نجاحه فى زعامته ، وفيها كذلك تعريف بمناحى تفكيره ، وهو على جملته تفكير صريح سهل مستقيم

على الحاشية

العزيمة والفصاحة والقدرة على التنظيم عناصر ملموسة فى كيان القائد الأعظم ، ولكنها لاتحصر جميع الخصائص التى تتألف منها معالم هذه الشخصية . تلك هى عناصر نجاحه فى الزعامة ، ولكنها تقترن بصفات أخرى على حاشيتها

ترسم لنا سائر معالمها ، وقد تكون أيضا من عناصر النجاح أو من العناصر الفعالة فى ولايته لأمور الدولة الجديدة من تلك الصفات خليقة المسالمة

ويدهش كثير من الناس اذا سمعوا أن هذا الرجل الصارم مسالم ، لان الصرامة فى الأذهان عامة مرادفة للشدة فى معاملة الآخرين والتحفز لمخاشنتهم والجور عليهم . ولعلهم لا يخطئون فى الجمع بين الصرامة والجور فى خلة واحدة ، الا ان الصرامة فى صميمها صرامتان : احداهما صرامة فى دفاعنا عن حدودنا ، والأخرى صرامة فى الجور على حدود غيرنا ، وشتان ما بين الخليقتين

ان الرجل الذى يشتد فى الذود عن حدود حقه قد يكون مثلا للمسالمة اذا امن على تلك الحدود ، وقد يصوره للناس فى صورة الجائر المعتدى أن تضعه الحوادث فى مقام الدفاع أبدا فلا يتخيلونه الا مشتدا محتدا متحفزا متوفزا لا يؤمن جواره ولا تهدأ ثورته ، ومن أستغرب وصف جناح بالمسالمة لعله يتصوره دائما فى تلك الصورة الثائرة دفاعا عن موقف أو كشفا للعدوان فى موقف خصومة ، بيد أن المتابعة والاستقصاء تنتهى بكل ثورة من تلك الثورات الصارمة الى حد تقف عنده ولا تتخطاه ، وليست كذلك ثورة الجور والعدوان

تجلى خلق المسالمة فيه يوم سالت الدماء فى الهند وتوالت الأنباء عن مقاتل المسلمين فى مساكنهم أو فى طريقهم الى الباكستان ، وغلت الدماء فى العروق وأوشك الزمام ان يفلت من الأيدى ، وخيف فى كل مكان أن يتغلب الغيظ على الحكمة والرحمة وأن يطيش الثأر فيؤخذ الأبرياء بذنوب المجرمين ،

ويقع العدوان على قوم من البراهمة انتقاما للمسلمين الذين قتلهم البراهمة فى غير الباكستان

فى تلك الأيام لم ينم جناح ولم يغفل لحظة عن مواطن القلق والخوف ، وطفق يرسل النداء بعد النداء ويطلق الوعاظ فى الحواضر والقرى ليبصر الناس بأوامر دينهم وما يجب عليهم لاخوانهم فى وطنهم ، حتى حفظت الباكستان مسلمها وبرهميها كلمته التى كان يرددها : ان ظلم البرىء انتقاما من الظالم مجاراة للظلم واجرام فوق اجرام

وتجلى هذا الخلق فى معاملته للحكومات المجاورة كما تجلى فى معاملته لرعاياه ، فكانت أوامره المتلاحقة لجنوده ان تسالم ولا تهاجم ، وأن الدفاع اذا وجب فهناك يسمعون منه أمر الدفاع الى أن يبيد آخر رجل بل آخر امرأة وآخر طفل قبل أن يفرطوا فى قيراط من حوزتهم . أما قبل ذلك فلا محل للحرب ما دام فى السياسة متسع للسلام

وقد شهدت الهند والباكستان صفحة أخرى لهذه الصرامة عند نشأة الدولة وانحاح المشكلات الخارجية عليها فى ابان التقسيم

فى تلك الفترة كانت صرامة جناح شدة تتلوها شدة ، واصرارا على هذه الشدة لا يعرف الهوادة او المساومة

فى تلك الفترة صادر كثيرا من الدعوات واعتقل كثيرا من القائمين بها ، وانكر أن يكون هناك غرض سليم وراء المقاومة التى يقدم عليها معارضوه

وانتقد المنتقدون ، واعتذر المعتذرون

اما المنتقدون فقد استندوا الى مبادىء الحرية والديمقراطية

واما المعتذرون فقد شبهوا الحالة يومئذ بحالة الحرب بل بحالة الخطر على سلامة الأمة ، وقالوا ان فى حياة الأمم اياما يباح فيها للحاكم الموثوق باخلاصه ما لا يباح له فى كل يوم

حجتان سمعنا فى اقطار كثيرة غير الباكستان ، وانتقاد واعتذار لم ينقطعا فيما مضى ولا ينقطعان فى هذا الزمان ، واقل ما يكون ذلك الانتقاد وذلك الاعتذار احسن ما يكون ، فما من أحد يزعم للسلطان المطلق أو للحرية المقيدة انهما اكثر من ضرورة مكروهة فى جميع الاحيان

وقد سبقت الاشارة الى مخالفة جناح لزعماء الهند من المسلمين والبراهمة فى مسلكهم ، أو مسالكهم المتلاحقة ، فى مسألة الخلافة ، ويجوز أن يقع فى الخاطر ان جناحا لايعنى بالأمم الاسلامية أو الأمم الشرقية خارج بلاده ، وانه لايشعر بالعطف لغير وطنه وامته ، وهو خاطر يجوز أن يقع فى الخاطر كما أسلفنا قبل الاطلاع على آراء الطرفين فى كل مرحلة من مراحل هذه المسألة المعقدة المفعمة بالنقائض بين ظواهرها وبواطنها ، وحسبنا منها فى الهند قيادة غاندى لحركتها واحجام جناح واقبال فى بعض المواقف عن مجاراتها

أما الحقيقة التى يسفر عنها الاطلاع عن الآراء المتقابلة فى المراحل المتعاقبة فهى أن جناحا كان يعترض على العبث ولا يعترض على الجد فى هذه الحركة وما يماثلها

كان ينكر تضييع الجهود حيث يكون تضييعها خسارة على الهند ولا يرجى منه نفع للخلافة ، وكان بثاقب نظره يرى النزاع بين السلطان العثمانى والرعايا المطالبين بالحقوق

الوطنية والحرية الدستورية فيفصل بين المسالتين ، ولا يحب أن يكون مؤيدا « للخليفة » وخاذلا لرعاياه

وفيما عدا ذلك لم يتوان يوما عن تعقب اخبار الشرق من اليابان الى أقصى المغرب ، ولم يسكت قط عن كلمة نافعة تقال فى قضية من قضايا الاقطار الاسلامية على الخصوص ، فصرح للحاكم العام فى ابان الحرب العظمى بأن معاونة المسلمين معلقة على ضمان الوطن الاسلامى فى فلسطين ، وخرج على المعهود من اتزانه فى عباراته الرسمية فحذر الغرب يوما من تلك السياسة التى ترمى الى استئصال السيادة الاسلامية فى جميع بلادها ، واحتج على خطط هولندة فى « اندونيسيا » واستعدى هيئة الأمم عليها ، وتابع الاطلاع على اطوار القضية المصرية حتى قيل له مرة لماذا لاتنال القضية الهندية مثل هذا الاهتمام من بريطانيا العظمى ؟ فقال : وهل عندكم هنا « جامع ازهر » تخرج جموعه بالرايات السود كلما حزب الأمة المصرية حازب ، فلا تبلغ نهاية الطريق حتى يكون الخبر فى دوننج ستريت ؟

وتداول القوم عن جناح انه الزعيم « الارستقراط » . تداولها الانجليز كما تداولها الهنود ، وسلمها الاصدقاء كما سلمها الخصوم ، ونظن انه هو لاينفى من هذه الشهرة انه رجل محافظ على سمعته معتكف لايستكثر من العشراء فى جميع علاقاته ؛ فمما يزكيه مع هذا ان العناية بالطبقة الفقيرة كان على راس القائمة فى جميع برامجه ، وانه لم يكن يفعل ذلك جريا وراء الجماهير فانه من المفروغ منه ان الجرى وراءها مظنة لم تخامر نفوس القادحين فيه فضلا عن مادحيه،

وقد جاءته الاصوات الى عقر داره والح عليه علية القوم ان يتولى الرياسة مدى الحياة ، بل هتفوا له باسم الشاهنشاه فاعتذر وقال لمن عرضوا عليه رياسة الدولة طول حياته : « دعونى أزوركم من حين الى حين فأسمع منكم وتسمعون منى ، وأسالكم أصواتكم وتسالوننى ما فى نفوسكم .. »

واصدق ما نشبه به جناحا فى مناقبه وخصائصه التى اجملناها انه صاحب « شخصية » غير مطلقة ولكنها غير موصدة : شخصية كالخزانة التى لاتعرض نفائسها فى وجهة بلورية ولكنها لاتحفها بالشوك أو تحيطها بالحراس والارصاد ، وتنفق مما تحتويه انفاق الكريم السخى الذى لايمتن على احد بعطائه ، ولكنه لا يقبل فيه السوم والمساومة ، واليه المرجع حين يعطى وحين يكف عن العطاء

حياته الخاصة

كتب الشاعر الالمانى هنريك هاينى عن فيلسوف الالمان الكبير « عمانويل كانت » فقال ان ترجمة حياته الخاصة من أعسر الأمور · لأسباب كثيرة ، أولها انه لم تكن له حياة خاصة !

ويستطرد الشاعر الظريف فيقول ان الفيلسوف كان يأكل وينام ويستيقظ ويتمشى للرياضة ويجلس للتدريس بالساعة ، وانه كان اذا ظهر فى رواق الزيزفون يتمشى كعادته كل أصيل نظر اليه الناس وأخرجوا ساعاتهم فضبطوها !

مثل هذا الكلام يقال عن القائد الأعظم ، ولكن لعلة غير العلة التى تعلل بها الشاعر الساخر للفيلسوف الحكيم

فمن أعسر الأمور كتابة حياة خاصة للقائد الأعظمولكن لعلة غير هذه العلة ، وتلك هى علم الجميع بحياته الخاصة ، فليست له حياة خاصة بين الجدران أو وراء الحجب يعلم بها أناس ويجهلها أناس : حياته الخاصة كانت هى حياته التى تخصه ويعلم بها جميع عارفيه ، ولم يكن لها ظاهر متكلف ولا سر محجوب

كان زعيم أمة قوامها الدين ، ولكنه لم يكن يلبس مسوح القديسين أو يرائى أحدا بالنسك والعبادة : كان اذا شهد اجتماعا وحضرت الصلاة أم الحاضرين فى الصلاة الجامعة ،

ولم يشاهد قط فى محفل على صورة تخالف ما ينبغى للرجل المسلم الذى يقود فى معترك السياسة أمة اسلامية ، ولكنه لم يشاهد كذلك متخذا من التدين مراسم للظهور والمراءاة

فى حدود ما يليق بالزعيم ، ولا التزام لحدود غير تلك الحدود

ولم تقيده الزعامة بقيد تأباه السماحة وسعة الصدر وآداب الاجتماع ، فكان من زواره مسلمون وغير مسلمين ، وكان يزور من يزوره ويرى فى بيوت الطوائف الاخرى كما يرى أناس من أبناء الطوائف الاخرى فى بيته ، وزياراته أو زياراتهم فى جميع الاحوال ليست بالشاغل الذى يستغرق فراغ وقته كما يتفق لرجل السياسة الذى تملأ تكاليف المجتمع حيزا كبيرا من وقته ، بل هى زيارات الرجل الذى لا يريد أن ينقطع ما بينه وبين الناس ، ولا يريد كذلك أن تقطعه تكاليف المجتمع عن أمانته الكبرى : أمانة السهر على تكوين أمة وحكومة

وكانت علاقاته بمعارفه ، وبمن يلقاهم فى عمله ، علاقة خلت من التكلف ، وربما بدا عليها من أجل ذلك مسحة من الخشونة ، أو بدا عليها نقيض الخشونة حين يخشى أن يحسبه الناس خشنا فى معارضته ، فيخفض من جناحه ويلين فى حديثه ، وقوة معارضته فى ذلك الحديث باقية فى مدلوله ومرماه

زواجه

صرفته الحياة العامة عن الزواج حتى بلغ الاربعين ، فلما

تزوج فى تلك السن كانت لزواجه قصة «جناحية» تطابق ديدنه المطرد فى حياته العامة • فان سفير الوحدة قد تزوج من فتاة زردشتية ، وأبت الأقدار الا أن يكون زواجه آية أخرى من آيات هذه السفارة التى صمد عليها ما استطاع

كان جناح رجلا وسيما وظل شيخا وسيما معتدل القامة الى أن توفى وهو يجاوز السبعين

كان علما بارزا فى جلسات المؤتمر والعصبة التى انعقدت فى سنة ١٩١٦ ، وكان يقود العصبة ويقود المؤتمر ويدير الحوار ويرد على كل سؤال ويخرج من كل معركة حامية بالحجة الناصعة والرأى المسموع ، وكان السير «دنشا بتيت» أغنى أغنياء الفرس فى بومباى يشهد الجلسات ومعه فتاته الذكية الحسناء رتن بتيت ، فأعجبها الرجل الوسيم وأعجبها الخطيب المبين ، وهامت به وفاتحته بحبها وسمحت لها تربيتها الاوربية أن تعرض عليه الزواج وهى دون العشرين

وفوجىء جناح باقتراحها وراجعها فى الأمر وبصرها بالعواقب التى تترقبها عاجلا وآجلا من جراء هذا الزواج مع اختلاف الدين وتفاوت السن ومحظورات التقاليد ، فزادتها المراجعة اصرارا وقالت له انها لا تجهل هذه العواقب وأولها الحرمان من مال أبيها والحرمان بعد ذلك من الميراث ، فلما آمن أن يقال انه قبل زواجها لمالها وأعلمها أنه يتوقع ما توقعته من حرمانها ، قابلت هى هذا النبل من الرجل الذى أحبته باعلان اسلامها ، فنشرت الصحف أنباء عقد الزواج واسلام الفتاة فى وقت واحد ، وقامت القيامة عليهما وثبت لها الزوجان فى غير مبالاة

ساقهما أهلها المقتدرون الى القضـــاء ، وودوا لو يدعون قصورها لولا ان سنها بشهادة الميلاد تخولها أن تختـــار زوجها بارادتها

ولما أراد القضاء أن يحرجه لينفض يده من هـذا القران المغضوب عليه ، واتهمه على ملأ من شهود الجلسة بأنه يجرى وراء الفتاة الغنية طمعا فى مالها ، لم يشأ أن يجيب وترك لها الجواب ، فقالت للقاضى مغضـبة انه لم يجر وراءها ولم يجر وراء مالها وارتضى أن يبنى بها وهو يعلم أنها ستحرم من ثروة أهلها ، وهى تعلن فى ساحة القضاء وفاقا لما أراد أنها قد استغنت عن معونة أهلها كل الاستغناء

ومن الاخبار القليلة التى وردت متفرقة فى سيرة القائد الأعظم نعلم ان هذه الزوجة النبيلة كانت جديرة بزوجها فى أنبل مناقبه وهى الشجاعة والاستقلال بالرأى والكرامة، فهان عليها أن تنبذ الملايين فى سبيل الرجل الذى أحبته ، وهان عليها أن تكبت حياءها وهى تبرئه من اغوائها وتجهر فى ملأ من شهود الجلسة انها هى التى عرضت نفسها عليه

ومن قصة طريفة تناقلها الهنود يومئذ تتراءى لنا الفتاة الغضة جديرة بزوجها فى بديهته الحاضرة وصراحته النادرة وصـــلابته القوية وجوابه السريع ، فانها ــ مع تربيتهـــا الاوربية الكاملة ــ كانت تأخذ نفسها باحترام عادات قومها وتنكر النزول عن سمت البلاد حين يكون النزول عنها تزلفا لأصحاب السيطرة الاجنبية ، ودعيت مع زوجها الى وليمة فى قصر الحاكم العام فحيته حين قدمت اليه بالتحية الهندية ولم تنحن متراجعة على طريقة الاوربيين فى مقام التعريف لأول

مرة ، فامتعض الحاكم العـــام واغتنم فرصة التحدث اليها فقال لها فى لهجة السيد الموتور : « ان زوجك يا سـيدتى لذو مستقبل عظيم أمامه فلا تفسديه عليه ‥ والمثل يقول : فى رومة اصنعى كما يصنع الرومان». قالت غير متهيبة : « وهذا الذى صنعت ‥ ففى الهند نقدم التحية كما يقدمها الهنود ! ».

ودعيت الى وليمة أخرى فى القصر فاستطرد الحديث الى الكلام عن البلاد الالمانية وراح اللورد ريدنج يقص شيئا من ذكرياته أيام التلمذة هناك. ثم قال : اننى مشوق الى زيارة تلك البلاد وأخشى ألا أستطيع . قالت السـيدة جناح : « ولمه ؟ » فعاد اللورد ريدنج يقول : « ان الألمان اليــوم لا يحبوننا ، وهم نافرون منا بعـــد الحرب ، وفى الزيارة حرج على الانجليزى الذى يذهب اليهم » ... قالت عـلى الأثر فى شىء من شيطنة الشباب : « عجبا ! وكيف اذن حضرت الى الهند فى هذه الأيام ؟ »

موت زوجته

وسعد الزوجان على غير الشائع عن زواج الحب أو زواج التفاوت بين الزوجين فى السن والعقيدة والنشأة الاجتماعية، ورزقا بنتا سمياها « فينا » ... ثم نكب البيت السـعيد بموت ربته وهى دون الثلاثين، وحار جناح فى تربية الطفلة الصغيرة فأبقاها عند جدتها لأمها فادخرت له الصروف فيها نكبة نكأت جرحه الذى لم يندمل بعد نكبته فى أمها ، فانها نمت فى بيئة زردشتية فتزوجت من أحد أبنـاء ملتها على

الرغم من تحذير أبيها ، وانقطعت الصلة بينه وبين الفتاة بقية حياته

وقد أوغلت النكبة فى قلب الرجل العظيم ايغالا أوشك أن يكون مميتا ، ولكنه لم يسمع شاكيا ولا متضجرا ولم يشاهد واجما ولا متوانيا فى مهمته القومية ، وكل ما تغير منه بعد النكبة انه أفرط فى التدخين وانه راح يغرق آلامه فى متاعبه السياسية ومساعيه القومية ، فاتخذ من النكبة القاصمة مصلحة له ولقضية بلاده ، وخلق من الحزن دافعا يضاعف القوة وأبى عليه أن يثقل همته فيضعفه ويفت فى عضده

ومن المصادفات التى قل أن تتوارد فى حياة زعيم كما تواردت فى حياة جناح ان الوقت الذى ودع فيه برنامج الوحدة هو الوقت الذى انتهت فيه آية الوحدة فى بيته وأسرته . فلم تكن سياسته بعد سنة ١٩٢٩ التى توفيت فيها زوجته الا تباعدا مستمرا عن فكرة الوحدة واقترابا مستمرا من برنامج التقسيم والفصل بين الدولتين ، وقد عن لبعضهم ان الحادثين مرتبطان ـ حادث الأسرة وحادث السياسة الهندية ـ ولو لم تكن الحوادث السياسية فى انجلترا وفى الهند وفى العالم كافية لتفسير برنامج الانقسام لأمكن القول بأن انقضاء الزواج بين الزعيم المسلم والفتاة الزردشتية كان له شأن فى التعجيل ان لم يكن فى التعديل والتحويل ، ولكن الخوالج النفسية التى تتعاور النفس فى أمثال هذه الاحوال عودتنا ان تكون الذكرى بعد الموت أقوى من العلاقة الحية ، فلو قيل ان ذكرى

القرينــة المحبوبة كانت هى الآصرة المتجــددة بينه وبين السلالات الاخرى بعد موتها لكان هــذا أحرى بالقبول من القول عن أثر الوفاة فى تفاقم سياسة الانفصال ، فضلا عن أن الزوجة كانت مسلمة وعاشت مع قرينها مسلمة لا تثنيه عن شىء فى أعماله السياسية

أخلاق جناح

والقول فى أخلاق جناح كالقول فى حياته الخاصة . فما كانت له أخلاق بين الأقلين تغاير أخلاقه بين الأكثرين ، وما كان دأبه فى معاملة أعضاء الهيئات الحزبية أو الحكومة يخالف دأبه فى معاملة كاتبه أو ضيفه فى بيته

صراحته هنا هى صراحته هناك ، واستقلاله فى رأيه هو استقلاله فى ذوقه ، ونزاهته هى نزاهته حيث كان

وقد وصفه عارفوه ، شخصيا وسياسيا ، فتكلموا عنه بلسان واحد يصدق على الحالتين

قال الدكتور ريدى Reddi : « انه فخر الهند وليس خاصا للمسلمين » ، وقال سير مودى Modi : « انه شجاع مستقيم لا يبحث عن السمعة وهو مثــال نادر للبراءة من نفاق السياسة »

وقال الصحفى البرهمى نهال سنغ Singh ـ وقد أذاع بعضهم ان تشرشــل يسخر جناحا لخدمة غاياته ـ : « ان شــعورى ان محمد على جناح قد يكون هو المسخر لشرشل وانه يتعالى بنفسه أن يجعلها آلة لذلك الوزير السابق من المحافظين »

وقال مستر ارثر مور محرر الاستيتسمان : « أن صعود

نجم جناح فى المجلس الاسلامى لا تكفى لتأويله براعته فى التنظيم والتدبير ، ولكنه كما علمت من المسلمين جزاء له على سيرة طويلة فى الحياة العامة تحققت فيها نزاهته عن اغتنام الفرص لنفسه ، واذا كان مستر غاندى معصوما من غواية المال لأن المال لا يغويه فمستر جناح معصوم من غوايته لانه يملك منه ما يكفيه ويغنيه ، واستقلاله الذى تربى عليه فى خدمة القانون خير كفيل له بالاستقلال عن المغريات »

وقال الدكتور السيد حسين : « اننى على معارضتى للباكستان لا يسعنى الا ان أصرح بأن جناحا هو الرجل الوحيد فىالحياة العامةالذى هو أرقى ما يكونعنالشبهات. انك لا تستطيع أن تشتريه بالمال ولا بالهبة ولا بالمنصب ، ولم يستفد قط شيئا من البريطان ، وما هو من رجال هذا المعدن ، فأخلاقه تسامى فى الرفعة أرفع الأخلاق التى أثرت عن زعيم فى الهند كيف كان ، ولم يقبل قط شيئا من البريطان سواء من النفع أو اللقب ، وان كان غاندى قد قبل شيئا منهم بعد حرب البوير ، وتعلم جماهير المسلمين أن جناحا هو الرجل الذى لا يعوزه المال ولا يستهويه طمع السلطان »

ولم يسع هوراس الكساندر صاحب كتاب « الهند منذ كريبس » أن ينكر عليه الألمعية وتوقد الذكاء ، غير أنه أراد أن يعيبه بالتناقض فدفع عنه أشهر التهم التى يرددها خصومه لأنهم لا يجدون تهمة غيره تلقى من الناس حظا من الاصغاء،وهى انه حريص على نظام معيشته وهندامه ولهذا

عارض سياسة المؤتمر « غير الدستورية »... فاذا بصاحب الكتاب يعيبه بالتناقض لانه دفع بالعصبة فى طريق المقاومة « غير الدستورية » وحولها من الوقار « الارستقراطى » الى الجلبة الشعبية !

وغاية ما ذهب اليه نهرو فى تفسير خطته ان نجاحه المتأخر قد لواه عن قبول الآراء والاقتناع بما يقترح عليه. فلما سأله لورد مونتباتن فى محادثة بينهما عن رأيه الخاص فى جناح موجزا فى كلمات قال : « انه رجل تأخر عليه النجاح ، ولو ان الحكومة البريطانية تركته حتى يطلب هو ما تطوعت باعطائه لكان أقرب الى الاعتدال »

ونهرو رجل فاضل لا يستجيز لضميره أن يواربه ، ولكننا لم نفهم ما يعنيه بالنجاح المتأخر ، فان جناحا نجح فى صناعة المحاماة وهو دون الثلاثين ، وكان المؤتمر على استعداد لانتخابه رئيسا له ورئيسا لأول وزارة يؤلفها ، ورآسته للعصبة وهو فى نحو الخمسين هى تتويج نجاح وليست أول نجاح ، وكلام نهرو ـ بعد ـ لا يعيب الرجل على أى وجه صرفناه

□

وقد راجعنا ما قيل عن جناح فى كتب قصرت على ترجمته وكتب أشارت اليه فى سياق الحوادث ، فلم نقرأ فيها وصفا لحياته الخاصة الا صح أن يقال انه كذلك وصف لحياته العامة، وانه بهذه الصفات جميعا منذور لغير الأثرة والأنانية، فصفاته الخاصة والعامة مما يوقف على خدمة الأمم ولا تستأثر به خدمة فرد من الأفراد ، غير مستثنى منهم جناح

وفاء حتى الممات

قال جناح يوم المنـــاداة بقيام دولة الباكستان : « ان الباكستان وسيلة وليست بغاية » وان قيامها ابتداء عمل ليس له إنتهاء

وجاء الواقع بحوادثه التى لا تنتهى ومطالبه التى يأخذ بعضها برقاب بعض فأعاد ما قاله القائد الأعظم بألف لسان

وراح القائد الأعظم يعمـــل فى رئاسة الدولة كأنه لم يعمل شيئا قبل ذلك وكأنه مطالب بعد اليوم بأن يعمل كل شيء

وكان عمله من قبل مرهقا معنتا فأصبح ـ بعد النجاح ـ أشد ارهاقا وعنتا

وهذا هو النجاح الذى تتشبث به أحلام بنى آدم وحواء : أعظم ما يكون أقسى ما يكون على الناجحين

وقد حدث لليائسين كثيرا أن بخعوا انفســـهم ، ولم يحدث لناجح أنه بخع نفسه اشفاقا من نجاحه . وما أغناه عن ذاك ؟ ان النجاح لقمين أن يعمل ما لم يعملوه

الا أن القائد الأعظم كان يرهق نفسه قبل قيام الدولة، وعنده ذخيرة من القوة يسعفها مدد من الصحة والشباب

وأما بعد قيام الدولة ـ وهو فى السبعين ـ فالجهـــد فى ازدياد والطاقة فى نقصان

وعلم أطباؤه هـــذا ولم يجهله أحـــد ، فما هو من الخفاء بحيث يختلف فيه علم الأطباء وعلم الدهماء

بل علمه القائد الأعظم قبل أن يعلمه طبيب ، وكأنه لم

يعلمه ولم يقع فى خلده أن يعلمه ، فلم يستمع الى تحـذير ولم يحفل بنذير

وكلما وعد أن يمسك عن العمـــل ، أو أن يجعل لعمله حدا ، غلبته شهامة قلبه فنسى الوعدالذى لم يتعود قط أن ينساه ، وأكب على عمل جديد ، تعقبه أعمال جديدة ، لأن الكف عن العمل ـ وهو ناظر الىمطالبه ـ يتقاضاه منالقلق والجهد أضعاف ما يتقاضاه شغلان فكره بالأعمال

وعذره لنفسه سائغ معقول

الا أن الشيخوخة فى السبعين ، ومعها اعيـاء القلب ، لا تسيغ ذلك العذر ولا تعقله ، ويستوى عندها منيجترىء على حكمها القاهر معذورا أو غير معذور

الى أن بلغ الكتاب غايتـه وحم الأجل فى يوم من أيام الصيف التالى لقيام الدولة الفتية ، فشـوهدت فى سماء العاصمة طائرة قادمة من « بلوخستان » فى ساعة الغسق، قل من كان يعلم ما فيها تلك الســاعة ٠٠٠ وفيها القوة المحركة للدولة كلها ، جاءت الى عاصمتها لتصبح رفاتا بعد ساعات

وكان حرس المطار من العارفين بوديعة تلك الطــائرة المدلجة فى الظلام ، فأدوا لها التحية ، وشـاهدوا ـ لفرط دهشتهم ـ آخر حركة « رســمية » لذلك البنيان النحيل الذى ما كف يوما عن الحركة : يتحـامل على نفســه ليرد التحية وهو بين الحياة والموت

وبلغت الساعة العاشرة منتصفها حين أذن القضاء بختام

تلك الحيـــاة ، وسرى النبأ بطيئا بطيئا كأنه ينوء بحمله الثقيل ، وخف الوزراء الى الدار يمشون كالاشـــباح بين حجرات غارقة فى الضياء .

وعجت الدار بالنشيج المختنق ، وانفجـر النشيج بعد مغالبة لم تفلح ، فترامى فى جوانب القصر رجال أشداء ، جبابرة من جنـــود الحرس فى موكب القائد المســـجى على فراشه . تعودوا أن يذهبوا به وأن يعــودوا به من حيث ذهبـوا ، وعلموا انهم عما قليل ســـيذهبون به الى حيث لا عودة ، وسيذهبون به ولا يسمعون له صوتا ، وقد عهدوا له - حيث ذهب - صوتا مسموعا يتجاوب صداه فى الدنيا ، ويصغى اليه المنصتون فى كل مكان

والى جوار الجثة ظل لا يهتز ولا ينشج ولا يهم بالنشيج : تلك هى الآنسة الشقيقـــة فى السواد ، وهول الصمت فى عينيها الجامدتين أشد من هول الدموع فى أعين أولئك المردة الناحبين

وما هو الا أن سرى النبأ المرهوب فى أنحـــاء العاصمة حتى غص الطريق بالوافدين : مائة ألف، مائتان ثم اشتملت الطرق المحيطة بالدار كل من فى المدينة من قادر على المسير ، لم يتخلف رجل ولا امرأة ولا طفل صغير

وفتحت الابواب للجموع المشيعة تلقى النظرة الاخيرة على الوجه الذى لن تراه بعد اليوم ، فتعاقبت فى نظام لم ينظمه أحد غير ما فى باطن النفوس من خشوع ، واستند بعضهم على أكتاف بعض يبكون ، وألعج قلوبهم بالحزن وفجر عيونهم بالدموع تلك الابتسامة التى ارتسمت على الوجـه القوى

الوقور ، رسمها الموت حيث ضنت متاعب الحياة أن تتركها هنالك مرتسمة عليه كل يوم

من قال ان النقيضين لا يجتمعان فليمدد بصره الىدخيلة النفس البشرية فى ساعة من ساعات الهول : تصدق ولا تصدق،وتعجب ولا تعجب،وتحس الهول وكأنها لا تحسه ، أو كأنها تتحداه بالأمل الذى يتراوح فيها بين الضمور والظهور

قد مات القائد الأعظم ... يا للهول !

هل مات القائد الأعظم ؟ كلا . انه لم يمت .. لعله وهم ، لعله خبر كاذب ، لعلها معجزة تتجلى بعد حين ... من قال ان رجلا كهذا يموت ؟

وفى ساعة الهول هذه كانت الآية الكريمة فى كل خاطر تفرق بين الشك واليقين «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل . افأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »... وكانت حوقلة المحوقلين عصمة الحائرين ومنفس المكظومين، لا حول ولا قوة الا بالله . يسمعها السامع ويجيب بها المجيب

وفرغت المنابر وأصوات الاذاعة فى جوانب الباكستان لتلاوة القرآن الكريم يتخللها من ساعة الى ساعة اعلان النبأ والترحم على الفقيد العظيم

قال زائر لعاصمة الباكستان بعد الوفاة ببرهة غير قصيرة : اننى كنت أعبر الطرقات وأحسب اننى سمعت القائد الأعظم فى رؤيا حلم . لاننى كنت أشعر بمحضره

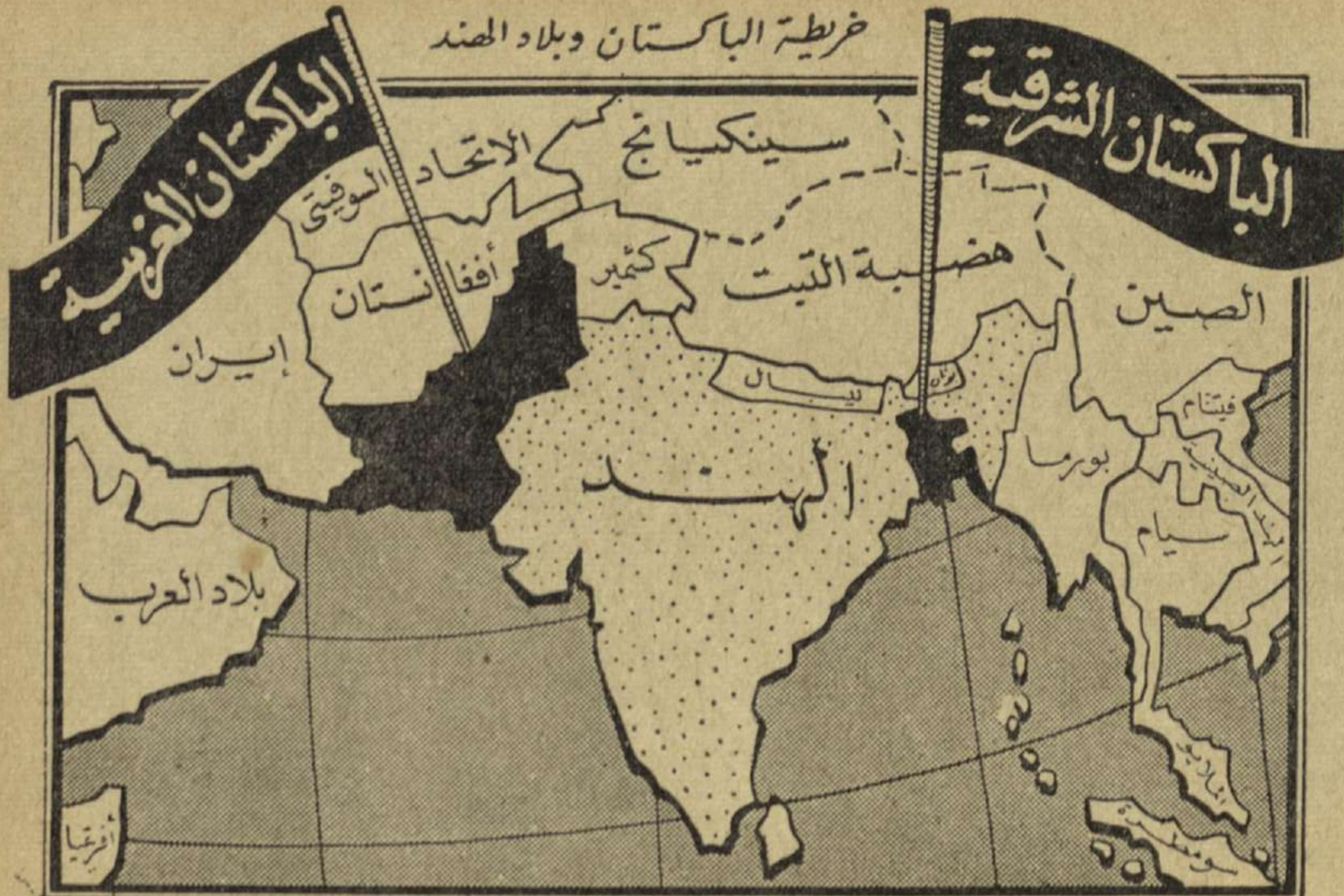
حيث مشيت وحيث نظرت ، ومن العسير على أن أصدق بموت انسان يطل على وجهه من كل مكان

ان حداد الباكستان على جناح كان حداد أمة على أبيها، وكان فى العيون والوجوه والقلوب ، ولكنه وفاء ساعات أو أيام أو شهور ، ثم تسكن النفوس الى القضاء كما قال شاعرنا الحكيم :

وللواجد المكروب من زفراته
سكون عزاء أو سكون لغوب

أما الوفاء الخالد ، الجدير بالزعيم الخالد ، فهو تخليده فى عمله وأمله ، وتصديق وصاياه فيما بقى من تراث مجده، وانه لتراث حى ما بقيت أمته كما أرادها وتمناها ، وما فهم الأوفياء هذا المعنى من الوفاء ، وأيدوه بالعزم والصبر والولاء

خريطة الباكستان وبلاد الهند



الباكستان بين الماضي والحاضر

مفارقة متعمدة

منذ سنتين (أى فى سنة ١٩٥٠) صدر فى انجلترا كتاب باللغة الانجليزية اسمه « خمسة آلاف سنة من تاريخ الباكستان » لمؤلفه (ر٠١٠م هويلر) Wheeler مدير الحفريات السابق فى الحكومة الهندية

مفارقة بينة على غلاف الكتاب ، واعتراف فى أول سطر من سطور المقدمة بتعمد هذه المفارقة ، لأن أمم الارض جميعا كانت تعلم يوم صدور هذا الكتاب ان الباكستان دولة جديدة لم يكد يمضى على انشائها أربع سنوات ،وانها جديدة باسمها كما انها جديدة بنشأتها ، لانه اسم لم يكن معروفا فى لغة من اللغات قبل الربع الثانى من القرن العشرين

جاء فى السطر الأول من مقدمة الكتاب « ان عنوان هذا الكتاب مفارقة متعمدة ، ولكنها تشتمل على حقيقة أساسية »

أما هذه الحقيقة الاساسية فهى ان البلاد التى شملتها الباكستان الآن ـ أو شملت معظمها ـ هى الهند التى عرفتها الأمم قديما ثم أطلقوا اسمها على البلاد الهندية كلها فى القرون الأخيرة ٠ فلم يعرف الفرس والصينيون واليونان والعرب شيئا يذكر عن داخل البلاد الهندية ،

وكلما وصلوا اليه وهمهم أن يعرفوه هو مداخل الهند الغربية على بحر العرب ومداخل الهند الشرقية على خليج البنغال ، وهذه على وجه التقريب هى دولةالباكستاناليوم

قصد السياح والتجار والغزاة الى تلك الشواطىء قبل آلاف السنين ، وحملوا منها السلع والمحصولات الى أرجاء العالم شرقا وغربا ، وتبين من « الحفريات » الحديثة ان الحضارة على تلك الشواطىء معرقة فى القدم ، وانها عرفت فنونا من الأبنية والمصنوعات تشهد لأهلها بالخبرة فى العمارة والصناعة وتترجم عن ثقافة دينية متقدمة بالقياس الى المعتقدات التى كانت شائعة فى تلك البقاع قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، ولا يزال علماء الحفريات يكشفون بين آونة وأخرى عن معلومات تتمم مواضع النقص فى ذلك التاريخ العتيق

ويؤخذ من المعلومات المكشوفة ومن التواريخ المعروفة ان مسالك التجارة والسياحة بين الهند والعالم الغربى قد اطردت فى سبلها المطروقة التى عهدها الناس الى أواخر القرون الوسطى ، وهى سبل البحر الى العراق واليمن ، ثم سبل البر منها الى مصر والشام

وقد كانت الدول الكبرى فى العصر القديم تتسابق الى السيادة على تلك السبل،فبسطت فارس سلطانها علىاليمن لتجمع بين يديها سائر السبل من شبه الجزيرة العربية ، وأراد الرومان أن ينتزعوا هذه السبل جميعا فجردوا حملاتهم على العراق واليمن ، وقنعوا آخر الأمر بالسيادة على منتصف الطريق ، فتكفلوا بحماية الأمراء الغساسنة

فى صحراء الشام ، ورشحوا للملك فى مكة قبل الاسلام زعيما من قريش يدينون له بالطاعة فى ظل قيصر ، ولم يكن فى طاقة قيصر أن يفرض الملك عليهم بالقوة فهددهم باغلاق أبواب الشام فى وجوههم ، وأمر الغساسنة بالترصد لهم على تلك الابواب ، وحال ضعف الدولة الرومانية فى ذلك العصر دون مرماها فى جوف الصحراء

وهكذا استقلت مكة بطريق التجارة من الهند الى اليمن الى مصر والشام

وهكذا نسج التاريخ احدى موافقاته التى تمتد من مئات السنين قبل الدعوة المسيحية الى مئات السنين بعد الدعوة المحمدية ، وجاز لمن شاء أن يقول ان الباكستان أقامت مكة قبل الاسلام، وان مكة ـ بعد الاسلام ـ قد أقامت الباكستان

أراد الفراعنة من قديم الزمن ، ثم أراد القياصرة بعدهم، أن يجعلوا البحر طريقا لتجارة الهند فغلبتهم سفينة الصحراء ، وانتظمت رحلة الشتاء ورحلة الصيف على أمواج الرمال كما كانت قبل ملك القياصرة والفراعنة ،واستقرت لهما مرحلة وسطى فى منتصف الحجاز ، فذاك حيث قامت مكة فى الجاهلية الأولى ، تتلقى قوافل الشتاء من الجنوب ، ثم تلقى بها مع قوافل الصيف الى الشمال

الباكستان الجديدة

وبعد سبع وأربعين وتسعمائة وألف سنة من الميلاد المسيحى ، ولدت الباكستان الجديدة باسمها ، والجديدة

بأسباب وجودها ، آلا سببا واحدا غير جديد عليها ، وهو الدين الذى ظهرت رسالته فى مكة منذ أربعة عشر قرنا ، ولولاه لكان للشرق كله تاريخ غير تاريخه المعلوم

معجزة من معجـزات الايمان التى لا تنقضى مع الزمن : معجزة تتحدى التجارة ، وتتحدى المنفعة ، وتتحدى سلطان الدول ، وتتحدى المعقول والظنون ، وتتغير السبل ،ويتغير السالكون فيها ، ويبقى الايمان فيصنعها معجزة خارقة لم يصدق بها أحد قبل وجودها ، ثم توجد فيصـدق بها من يرى ويسمع ، وتصبح بعد ذلك سندا للعقول التى عرفت بها الممكن والمستحيل ، وقد كانت تخلط خلطها الذريع بين الممكن والمستحيل

أمكن ما لم يكن فى الامكان

شجرة تحمل تسعين مليونا من الفروع الآدمية ،تنقطع جذورها جميعا ، وتنغرس جذورها جميعا ، ولا تذبل ولا تفنى ، بل يسرع اليها النماء والايراق ، من حيث قدر لهـا الذبول والفناء

معجزة فى زراعة الشجر

أما فى زراعة الأمم فوصفها بالاعجاز قصد واعتدال

ولو كانت مع الزارعين هنا كل معداتهم لعظمت المشقة وناءت بها كواهل العصـــبة أولى القوة ، ولـكنهم كانوا يغرسون المعدات كما يغرســون الفروع ، ويخلقون التربة كما يخلقون غروسها وثمارها ، ولا قبـل لهم بالانتظار ،

يوما أو بعض يوم ، اذ كل يوم جديد ، يأتيهم بقطع جديد، ووصل جديد

لقد حسبوا عدد المهاجرين الى الباكستان فبلغوا ثمانية ملايين : حسبوا عدد المهاجرين وحدهم كأنما كان سكان الباكستان الذين بقوا فيها قد خرجوا من عداد المهاجرين المتنقلين ، وما بقى منهم أحد على قراره الذى استقر عليه قبل نشأة الباكستان ، وماكان منهم أحد الا وهو فى حكم المهاجر من مكان الى مكان ، المنقطع عن منبت فى طريقه الى منبت ، الماثل على أبواب حكومته يسألها عن مصيره ومصير مورده ومصدره ، وكلما أشير له الى مصير اذا به قد تحول وتحول معه ألف مصير ، والمدد متلاحق متسابق،والسكوت عنه يوما مشكلة تتبعها مشكلات

دوامة فى اعصار ، ولا سبيل الى الدوار
لان الدوار غرق عاجل بغير قرار

□

وقد قيل ان الاخفاق صدمة وان النجاح عبء يكبر كلما كبر النجاح

وأطوار الأمم تتوالى بالشواهد على صدمات الاخفاق وأعباء النجاح فى مختلف العصور . أما فى عصرنا الحاضر فهذا المثل أقرب الأمثلة على أعباء النجاح التى تخف الى جانبها صدمات الاخفاق

وقد كان الزعماء المشرفون على بناء الدولة الجديدة

ينتظرون عونا موعودا ويتأهبون للمتاعب كما قدروها .
فأما العون المنظور فلم يأت،وأما المتاعب فقد جاء منها ما هو مقدور وما ليس بمقدور

كان للباكستان حصة من أموال الدولة يقضى اتفاق التقسيم بتسليمها اليها ، فلم يتسلموها

ونقلت اليها فى الطريق بعض الودائع التى لا خير فى احتجازها ، فاغتالتها الطريق نهبا واتلافا قبل أن تبلغ الحدود

وخرجت الباكستان من القسمة بظلم المكان بعد ظلم السياسة ، فكان نصيبها من ودائع الارض ، ومن الخيرات التى لا تنقل ، أصغر النصيبين ، وكادت أن تخلو من المصانع والمدارس كما خلت من أنفس المناجم وأصلح الموانىء ، ولم تظفر بحصة قط فى تراث التقسيم الا كانت هى المرجوحة المزهود فيها من الحصتين

أما المتاعب التى جاءتهم على غير انتظار ، أو على خلاف ما قدروه ، فأولها متاعب الطابور الخامس مأجورا وغير مأجور ، فاستغل الدساسون ربكة القلق التى ساورت أصحاب المصالح وزينوا للضعفاء منهم أن ينفصلوا باختيارهم لان علاقاتهم بأقاليم الهند أوثق من علاقاتهم بأقاليم الباكستان ، وأشاع بعضهم ان الحكومة فى صدد الغاء اللهجة البنغالية التى يتكلمها أكثر من نصف السكان ، وأشاعوا ان القبائل ستحكم على نظام جديد ، وهى تلك القبائل التى لم تعرف نظاما للحكم منذ آلاف السنين غير نظامها الموروث ، وأشاعوا ان الحكومة سترفض الدين

و « تتفرنج » فى تقرير قواعد التعليم والقضاء ، وكان على ولاة الأمر أن يلاحقوا هذه الاشاعات بالتكذيب العملى ـ تكذيب الوقائع الملموسة ـ قبل أن تستفحل وتستعصى على التدبير ، لأن تكذيب الأقوال فى هذه الاحوال قلما يصغى اليه

وعرف القائد الأعظم أن العدو الأكبر فى هذه الغاشية المتراكبة هو الرشوة والسوق السوداء ، فضرب على أيدى المفسدين من الموظفين والتجار بغير رحمة ، ولم يكن له مناص من قمع الرشوة والعمل على استئصالها من دواوين الحكومة ، لأن التجارة الصادرة كلها قد آلت الى أيدى الدولة ، فلا أمل فى عمار الدولة مع العبث والفساد فى الدواوين

ولا نطيل فى سرد المتاعب ولا فى سرد الجهود التى تغلبت عليها ، فقد تغنى عن الاطالة هنا مقابلة الارقام فى باب واحد بين السنة الأولى بعد التأسيس والسنة الخامسة ، اذ ارتفعت موارد الدولة من نحو ستمائة وسبعين مليون روبية الى نحو ألف ومائتين وسبعين مليونا ، وزاد الوارد على المنصرف ، بعد أن كانت ميزانية الدولة منصرفا لا مورد له على الأكثر غير القروض

أما نظام الحكم فى الدولة فهو قائم على أساس الديمقراطية والدستور ، وأن تكون الاقاليم مستقلة فى حدودها مشتركة فى الشؤون التى تتوحد فى الدولة وهى شؤون الدفاع والسياسة الخارجية وتدبير العملة ، وأن تسأل الوزارة أمام الهيئة النيابية فى العاصمة ، ويختار كل اقليم هيئته

النيابية التى تراقب حكومته ، وسيحرص الدستور على تمثيل المصالح فى جميع الطبقات ، وينص على تخصيص الدوائر لتمثيل الصناعة والزراعة والتجارة والعمال ومعاهد التعليم العليا ، ويعطى المنبوذون من البرهميين الذين فضلوا الاقامة فى الباكستان على الهجرة الى الهند حقا يخولهم أن ينفردوا بانتخاب ممثليهم ، وكذلك يعطى هذا الحق للمسيحيين حيث يكمل لهم عدد يستقل بالانتخاب

والعصبة الاسلامية اليوم هى الجماعة السياسية التى تتمثل فيها آراء القادة فى الباكستان ، ولكنها لا تتألف من حزب واحد فى مذاهب السياسة والاجتماع • اذ يوجد فيها غلاة الاشتراكيين كما يوجد فيها غلاة المحافظين، ويوجد فيها من يحاربون رأس المال ومن يؤيدونه ويستديمونه ، ويوجد فيها على الأغلب الأعم من يرون ان الاسلام طريق ثالث بين طريق رأس المال وطريق الشيوعية ، ويمكن أن يقال ان العصبة الاسلامية تعبر عن مبادىء المؤمنين بقيام دولة الباكستان، خلافا لمن كانوا يعارضون قيامها ويتخذون لهم وجهة غير وجهتها ، ولهذا تعتبر العصبة أن من يعارضونها من خارجها معارضون لتكوين الدولة فى أساسها، وتسمح بالمعارضة فى داخلها ولا تسمح بالمعارضة من خارجها ، ونحسب أن الحذر من هذه المعارضة فى دور التكوين وشيك أن يتسهل بعد تصعيب ، وأن يكون زواله علامة على زوال الخطر على كيان الدولة وسلامة المجتمع، فلا تصبح معارضة العصبة معارضة للدولة والأمة ، ولا

تحتاج أحزاب السياسة الى رقابة غير رقابة الرأى العام

□

ليس فى وسع منصف أن ينظر الى العمل الرائع الذى تم فى هذه الدولة الناشئة خلال خمس سنوات بغير نظرات الاكبار ، وليس فى وسع منصف أن ينكر عليهم صدقهم واقتدارهم وحسن تصريفهم للأمور التى تجل أحياناوتدق أحيانا عن التصريف ، وليس فى وسع منصف أن يضن عليهم بالمعاذير فيما عرض لهم من النقص وتورطوا فيه من الاخطاء ، وليس فى وسع منصف أن ينفى عنهم كل نقص ويعصمهم من كل خطأ ، فمن يتكلم عن العصمة لا يتكلم عن انسان

الا أن الشهادة التى هى أعظم وأشرف من كل شهادة لهؤلاء القادة هى التعالى عن استغلال الغرائز الثائرة تمكينا لأنفسهم فى مناصب الحكم وتمهيدا للبقاء فيها وتغشية لأعين الجماهير عن التنبه لما يقعون فيه من الاخطاء ويؤخذ عليهم من العيوب

ففى مثل هذا الموقف ، بل فى أهون من هذا الموقف ، يندر أن نرى زعيما يتعفف عن كسب « الحماسة الشعبية » له ولسلطانه باذكاء الضغينة واثارة العصبية وتغذية الكراهية بين الطوائف والاقوام بكل ما يلعج الخواطر ويلهب النفوس ويفتح آذانها كل يوم لما يلقيه فى روعها ، ويغلق آذانها كل يوم عن سماع الحق والاصغاء الى النقد الصحيح

رأينا هذا فى دولة النازيين ، وفى دولة الفاشيين ، وفى

دولة الشيوعيين ، ورأينا زعماء هذه الدعوات يحرضون طائفة على طائفة ، وحزبا على حزب ، وجيلا على جيل ، بل رأيناهم يحرضون أقوامهم على العالم بأسره مصوريه لهم فى صورة العدو الذى يتحفز لهم ويتربص بهم ويتحين الفرص للانقضاض عليهم ، ولا يبالون ما وراء هذا الغل الدفين من شر يحيق بهم وبمن حولهم ، ولا يسلم منه قريب ولا بعيد

فمن الشهادة العالية لقادة الباكستان انهم تغلبوا على هذا الاغراء مع وفرة المغريات وكثرة العداوات ، وانهم لم يتعففوا عن اثارة الغرائز وكفى بل عقدوا العزائم على تصفية القلوب وغسل الصدور ومحو التراث ، وجعلوا هجيراهم أن يقربوا بين المفترقين ويفثأوا سورة الغاضبين، واستهدفوا من جراء ذلك للغيلة والايذاء ، ممن حسبوا طيشا منهم وجهالة ان حسم العداء والبغضاء ممالأة للاعداء

هذه شهادة لهم أرفع من كل شهادة بالخبرة والاقتدار على التصرف فى الأزمات والمفاجآت ، لانها تسجل لهم انهم قادة أمة وليسوا مجرد حكام محترفين للسياسة ، وان اخلاصهم لأمانتهم مقدم عندهم على الاخلاص لمناصبهم ومنافعهم ، وهى روح شماء لولاها لما أنجزت الباكستان بعض ما أنجزته فى أقل من خمس سنوات ، وبمثلها فى الأمم الهندية والاسيوية على العموم يرجى أن تنحل العقد الشائكة وتنحسم المنازعات المتشعبة ، فان أمم الشرق أحوج الى القوى التى تبددها تلك العقد والمنازعات على غير جدوى، وأحق أن تتوفر بها على لم شملها وجمع عزائمها والتعاون

فيما بينها على اداء رسالتها الانســـانية واللحاق بركب الحضارة الذى تخلفت عنه عدة قرون

دروس نافعة

ما أكثر معارض البحث والنظر فى ســيرة الباكستان وسيرة قائدها الأعظم : كلها معارض بحث ونظر ، وكلها دروس تجدد آراء الدارســين فيما فهموه قديما من أسرار المجتمعات وظواهر الدول التى خيل اليهم انهم فرغوا منها أو يئسوا من الفصل فيها ، ومنها ما هو فيصل التفرقة فى مسألة المسائل جميعا وهى مسألة العالم ومصيره أو مسألة الجماعات البشرية وبواعث تكوينها وتماسك أجزائها

هل الحكم كله فى مسألة المسائل هذه للمعدة أو للضمير؟ هل للبطولة شأن فى حياة الاقوام أو هى فى حياة الاقوام صفر على اليسار ؟ هل المادة وحـدها هى الترجمان المفسر للتاريخ أو لهذا التاريخ مفسرات أخرى قد تهزم تفســير المادة وتنقضه وتتحداه ؟

فى موقف الفصل هذا نجحت الدولة الطارئة كأنما بعث بها الغيب فيصلا للتفرقة فى هذا التنازع بين الضمير والمعدة على مستقبل الأمم ومصير الجماعات الانسانية

نجحت هذه الدولة الطارئة من جهة لتبسط حكمها على مسافة من الارض ، ومن الجهة الاخرى لتبسط حكمها عـلى مسألة المسائل وقضية القضايا ، وتصحح للمفكرين آراءهم وتصحح للعقول مناهجها فى التفكير ، وتضع الأسناد بين القائلين بالمذاهب السياسية أو الاجتماعيـة عملا لا قولا ،

وواقعا لا جدلا ، بل عملا واقعا فى جثمان يملأ الآفاق ، ويحصيه الحساب بألوف الفراسخ وملايين الأرواح.

وقد وصلت الينا ، ونحن نكتب الصفحات الاخيرة من هذا الكتاب ، مجموعة البحوث الدولية عن السنة المتداخلة بين سنتى ١٩٥٠ و ١٩٥١ ، ونعنى بها المجموعة التى تطبعها جامعة هارفارد باشراف الاستاذ بادلفورد Padelford العالم الخبير بشؤون الدراسات الدولية ، فاذا بقيام الباكستان قد دخل فى عداد الاسانيد التى تجدد المقررات والمعلومات عن بواعث التاريخ الكبرى وعن التعريف الصحيح لمعنى الأمة ومعنى الجنس أو السلالة

يقول سير ارنست باركر فى باب القومية على ضوء التجارب العصرية : « ليست الأمة حقيقة بدنية من دم واحد ولكنها حقيقة عقلية أو نفسية من تراث واحد »

واستطرد البحث الى العامل الدينى فى تكوين الأمم فقال الاستاذ : « كان الرأى الشائع الى زمن قريب أن أثر الدين فى تكوين الأمم يتضاءل ويضمحل ، وهذا الاعتقاد فى تضاؤل أثر الدين فى شؤون السياسة يتطلب التنقيح بعد قيام دولتين على أثر الحرب قائمتين على الوشائج الدينية وهما دولة الباكستان المسلمة ، ودولة اسرائيل اليهودية »

ثم استطرد الباحث الى سحر البطولة وفعله فى استجاشة الآمال والأحلام بين الأمم الاسيوية فى العصر الحاضر ، فاعتد « الشخصيات » المقدسة عاملا من أقوى العوامل فى تطور الأمم وتحويل مجراها

من هذا الجانب الفسيح الرحاب ينظر الى قضية الباكستان كل من ينظرون الى حاضر الانسان ومصيره ، والى الدوافع الفعالة فى حركات آحاده وجماعاته ، ولا ينحصر النظر الى تلك القضية فى نطاق المسائل الشرقية والمسائل الاسلامية، ومهما يكن دين المعتقد أو رأيه فى الأديان فليس محور النظر هنا عقيدة مسلم أو عقيدة مسيحى ، أو عقيدة برهمى ، أو تفضيل عقيدة على عقيدة ، أو اثبات عقيدة وتفنيد أخرى ، وانما محور النظر هو : معدة أو ضمير ؟ جسد أو روح ؟ بطولة انسانية أو تكرار أعداد وأرقام

ومن فضل الباكستان فى نشأتها انها قامت فرجحت فى ميزان التاريخ جانب الضمير ، ومن حق كل مؤمن بعقيدة يدين بها ضميره أن يغتبط بهذا الترجيح ، سواء فى ذلك المسلمون والبرهميون

موازنة بين غاندي وجناح

ما وراء التاريخ .. كل تاريخ

علم وزير انجليزى من أحرار العمال أن الهند تمضى فى طريق الحرية لانه رأى فيها زعيما يملك شـــجاعة الرأى ويواجه بها المئات من المخالفين منفردا مصرا على استقلاله ، وهو محمد على جناح

والعلامة التى لمحتها فراسة السياسى الخبير علامة صادقة

ولكن هناك علامة أصدق منها على استعداد الهند للحرية ، وهى انها احتاجت الى زعيمين صـالحين لقيادتها فى طريق الحرية فوجدتهما حيث احتاجت اليهما ، وهما غاندى فى الهند ، ومحمد على جناح فى الباكستان

كلاهما صالح لقيادة أمته

وكلاهما عمل غاية ما يرجى من الزعيم لاداء أمانته

كلاهما رسم الخطة التى تكره المستعمر على الجلاء، فنفذت كما رسم ، وان اختلفا بينهما فيما رسماه

وكلاهما ولا شك كان مخلصا لمبادئه ، مخلصا لدعوته، مخلصا فى وجهة نظره ، ولهذا لزم الوجهتين قائدان ،ولزم كلا منهما أن يقف أمام صاحبه موقف المعارضة والخلاف

واذا رأينا أن أحدهما كان أقرب الى الدهاء وان الآخر كان أقرب الى الصراحة فذلك هو حكم القضيتين عليهما ،



غاندى وجناح

أو ذلك هو حكم الاخلاص عند كل منهما لقضيته ووجهة نظره

كان غاندى يطلب التغليب والتسليم بسيادة واحدة ، ولا معدى لمن يطلب هذا من محايلة ومحاولة

وكان جناح يطلب الانفصال ويرفض السيادة الواحدة ، ولا معدى لمن يطلب هذا من صراحة ومجاهرة بكل ما يريد

ان المقابلة بين العظماء أنفع الدراسات النفسية ، فهى دراسة نافعة لفهم حقيقة الانسان وفهم حقيقة الجماعات ، ونافعة لكل من يعنيه أن يحسن تقدير الاعمال الكبرى والدعوات الشاملة ، ونافعة لمتعة العقل وتوسيع آفاقه

وما من مقابلة أو موازنة بين عظيمين تخلو من منافعها الفكرية والعملية فى جميع هذه الاغراض

الا أن الموازنة بين الزعيمين الهنديين تذهب بنا الى مدى أوسع جدا من الموازنات الشائعة بين الزعماء من قبيل واحد أو من أنماط متعددة ، لانها تكشف لنا النقاب عن سر من أسرار التاريخ طالت فيه المناقشة ، بل طالت فيه المكابرة، ولا تزال تطول

هل المرجع فى التاريخ الى ضمير الانسان ، أو الى المادة التى توزن حينا بميزان الطعام وتوزن حينا بميزان النقد فى الاسواق ؟

والمقابلة بين الزعيمين الهنديين تجيب عن هذا السؤال جوابا يحار فى نقضه من يستضعفون عمل الضمير ويرجعون بكل عامل من عوامل التاريخ الى « المادة » بمختلف الاسماء

ها هنا رجلان ولدا فى اقليم واحد ، وهو اقليم راجكوت

ودرجا فى جيل واحد، وهو الجيل الذى نشأ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

وتكلما فى صباهما بلغة واحدة وهى اللغة الكوجراتية

ونبتا فى طبقة واحدة ، وهى الطبقة الوسطى المتيسرة التى يغلب عليها اليوم اسم البرجوازية

وتعلما على نسق واحد ، فدرسا القانون فى الجامعات الانجليزية ، بعد اتمام الدراسة الثانوية فى البلاد الهندية

والسن بينهما متقاربة ، بل التكوين البدنى فيهما يتقارب الى الدقة والنحافة ، وان كان أحدهما الى الطول والآخر الى القصر

واشتغلا بالمحاماة أولا ثم اشتغلا بالسياسة فى ميدان واحد وهو ميدان القضية الهندية أمام الاستعمارالبريطانى كما يتولاها حزب المؤتمر

ثم حكمت العقيدة الدينية حكمها فاذا بكل منهما فى طرف من طرفين لا يلتقيان

وليس المفترق بينهما فى برامج السياسة التى تتغير بتغير الحكومات والاحزاب ، بل هو مفترق فى أطوار الفكر والمزاج كأنهما ينتميان الى أبعد الاقاليم والبيئات ، ولم ينتميا قط الى اقليم واحد وطبقة واحدة ، أو يتكلما فى المهد والصبا بلغة واحدة ويتخرجا فى الشباب والرجولة من معاهد تعليم واحد

هذا يقاطع الحضارة ، وذاك يستزيد من الحضارة

هذا يرى القوة فى تحطيم الصناعة الكبرى ، وذاك يرى القوة فى تأسيس هذه الصناعة الكبرى وتدعيمها

هذا يعول على المقاومة « السلبية » على شرعة الاهمسا ، وذاك يعول على التنظيم والتأهب بالجماعات المنظمة للعمل فى حينه ، وكما تقتضيه دواعيه

هذا يسميه قومه « المهاتما » وذاك يسميه قومه القائد الأعظم ، وفى مفترق التسمية مفترق المسميات ، كأبعد ما يكون الافتراق

لم يختلفا قط الا فى عقيدة الضمير ، ولم يتفقا فى شىء قط بعد ذلك ، حين دخلا فى ميدان العمل الحاسم ، وكلاهما مخلص لعمله بغير جدال

والرجلان فى هذا مثالان صادقان للأمتين : أمة الهند

الكبرى من البرهميين ، وأمة الباكستان الناشئة من المسلمين

لم تكن الوحدة الجغرافية هى التى فعلت فعلها الأكبر فى نشأة الباكستان ، فانها شطران من الارض بين الشرق والغرب يفصلهما أكثر من ألف ميل

ولم تكن الوحدة الاقتصادية هى التىفعلت فعلها الاكبر فى نشأتها ، لأن السكان فى شرقها يزدحمون كل سبعمائة فى الميل المربع ، ولا يزيدون فى غربها على مائة فى الميل ، ومحصولاتها الرائجة تصنع فى غير مصانعها ، ومنها جهات لا محصولات فيها ولا صناعات ، وجهات تتعلق مرافقهـا بالشقة الاخرى من الهند البرهمية

ولم يكن جنس السلالة هو الفارق بين الهند والباكستان، فان محلل الدم لو أغمض عينيه وحالل دم ألف من أهل الباكستان ، ودم ألف من أهل الهند لخرج من التحليل بنتيجة متقاربة ، أو لكان الفارق بينهما كالفارق بين ألف من الباكستان وألف أيضا من الباكستان

وليس فى وسع أحد أن يبرز عاملا واحدا مفسرا للتاريخ كما برز عامل العقيدة وحدها فى الباكستان ، فهو العامل الموجود حيث تختفى جميع العوامل أو توجد على ضعف وتفرق ، وهو العامل الذى قام وحده فى وجه كل العوامل، فكان له قضاؤه الذى لا مرد له ولا معقب عليه

ويتراءى لنا من مراجعة التاريخ الحديث خاصة فى بلاد الهند أن هذه البلاد ساحة لا نظير لها لتحرير الأصول التاريخية التى يصعب تحريرها فى أكثر بلاد العالم . لان

تاريخها قد تكفل بعزل كثير من العوامل التى توقع اللبس فى ذهن المؤرخ فلا يدرى متى تعمل مشتركة ومتى تعمل على انفراد

ان الكيماوى الذى يجرب فعل المواد فى الاجسام يعزلها واحدا فواحدا حتى يتسنى له الجزم بفعل كل مادة فى الجسم الذى يختبره

والأمم الشرقية والغربية قد اختلطت فيها عوامل الوطنية والجامعة الدينية والتيارات الخارجية وحروب الطبقات والطوائف ، فكل ما ينسب فيها الى فعل عامل من هذه العوامل يجوز أن يشترك فيه عامل آخر ، ويصعب تقدير الباعث فيه والغاية على وجه صريح خلو من اللبس والاختلاط

بيد أن تاريخ الهند قد عزل التيارات الخارجية بعد سيطرة المستعمرين على البلاد الهندية ، فكل ما وصل اليها من تيارات الخارج فانما كان من سلطان أولئك المستعمرين أو مما يأذن به ذلك السلطان

هذا الذى عنيناه حين قلنا ان تاريخ الهند الحديث ، خاصة ، قد تكفل بعزل كثير من العوامل التى توقع اللبس فى ذهن المؤرخ فلا يدرى متى تعمل مشتركة ومتى تعمل على انفراد

ومن أثر هذا العزل فى دراسة تاريخها ان امتحان دلائل القصد أو المصادفة فى التاريخ يتيسر هنا بأقل ما يمكن من دواعى اللبس والاشكال

عرضنا لهذه المسألة فى كتابنا عن غاندى فسألنا : « هل

للتاريخ الانسانى وجهة معينة نستطيع أن نتبينها من جملة الحوادث الماضية ؟ »

وقلنا انه سؤال يتوقف جـوابه على سؤال آخر وهو : ماذا عسى أن تكون وجهة التـــاريخ المعقولة اذا تخيلنا له اتجاها يتوخاه على نهج مرسوم ؟

والجواب : شىء يتعلق بالفرد ، وشىء يتعلق بالناس كافة أو بالانسانية جمعاء . فالشىء الذى يتعلق باتجاه الانسان الفرد هو ازدياد نصيبه من الحرية والتبعة ، والشىء الذى يتعلق بالانسانية جمعاء هو ازدياد نصيبها من التعـــاون والاتصال

« وزيادة نصيب الفـــرد من الحرية والتبعة هو المطلب الشامل الذى تنطوى فيه جميع المطالب ، فهو أشـــمل من القول بازدياد العلم أو ازدياد القوة أو ازدياد الفضـــائل والملكات ، لان هذه الخصال كلها تتمثل فى زيادة استعداده لحق الحرية وزيادة قدرته على احتمال التبعة

« وكذلك يقال عن التعاون بين عناصر الانسانية برمتها ، فهو أشمل من القول بارتقـاء النظم السياســـية وارتقاء المعاملات التجارية وارتقاء الاخلاق الاجتماعية ، لان هـذه الخصال كلها تتمثل فى التقارب بين الامم والتعاون بينها على وسائل الوحدة والاتصال »

« هذا وذاك هما الوجهة المعقولة التى نتخيلها للفـــرد وحده ، وللناس كافة ، اذا كان للتاريخ وجهة معقولة تدل عليها الحوادث الماضية

ثم قلنا : « ولم تكن الحروب ولا المطامع حائلا دون هذا

الاتجاه ، بل لعلها كانت من دوافعه ودواعيه ، فأسفرت كل حرب من حروب الرومان والفرس والعـــرب والصليبيين والعثمانيين عن تشابك بين ناحية وناحية من الكرة الارضية، ومن جراء هذه الحروب تشابكت آسيا وأوربة وأفريقية ، وانفتح الطريق الى القارات المجهولة

« واذا نظرنا الى أثر الحروب فى المخترعات وتسخير قوى الطبيعة جاز لنا أن نقول : ان وسائل المواصلات قبل غيرها مدينة للحروب بالشىء الكثير ، فماذا يكون الطيران والرادار ومحركات القوى جميعا لولا ضرورات الحروب واشـــتراك غريزة الدفاع عن النفس فى سباق هذا المضمار ؟ بل نحن نتعلم من التاريخ ان الدولة الفاتحة لا تدوم الا بمقـدار ما لدوامها من رسالة عالمية • فدولة الرومان دامت حين كانت لازمة للعالم وأخذت فى الانحـــلال حين بطلت رســالتها العالمية ••• »

واستطردنا الى دلائل ذلك الاتجاه فى تاريخ الهند وفى حروب الاستعمار الاوربى « وهى محنـــة طامة على الشرق بأسره ، نقم منها الشرق لما أصابه من بلواها ورغب فيهـا الغرب لأمر أراده وأرادت الحوادث غيره ، ولم يخطر للشرق ولا للغرب على بال »

ومما أرادته الحوادث ولم يرده الغرب المستعمر اجتماع كلمة الهند فى وحدة تحارب الغرب المستعمر • قلنا انها ـ أى الهند ـ « لم تكن قط وطنا واحدا فى عصر من العصور، لانها كانت تتألف من شتى العناصر ، وشـــتى المذاهب ، وشتى اللغات ، وشتى المصالح ، وشتى المواقع الجغرافية•

فلم تدافع قط دفاعا واحدا ، ولم تشترك قط فى هجوم واحد ، ولم تجمع قط على مطلب واحد بينها وبين أبنائها، ولا بينها وبين الغرباء عنها والمغيرين عليها ، فلما ابتليت باستعمار واحد طغى عليها من أقصاها الى أقصاها وجد فيها وطن واحد يواجه ذلك الاستعمار بمطلب واحد ، وهو مطلب الخلاص منه ، كيفما تعددت وسائله بين طلابه »

وقد تعددت وسائله بين طلابه فكانت الباكستان وكانت الهند ، ولكنهما قبل أن تصبحا دولتين كانتا « وحدة » متفقة على مكافحة المستعمر واكراهه على الجلاء

ولو شئنا لقلنا ان قيام الدولتين بعد الخلاص من الاستعمار كان نفعا مضافا الى نفع ، لانه يستصفى لكل منهما جهودها، ويفرغها لرسالتها التى هى أقدر عليها ، ويعفيها من المنازعات الداخلية ، ويفتح الباب للتعاون بين الدولتين فى السياسة العالمية والانسانية . ولكننا نكتفى باجتماع القوى على محاربة السيطرة الاجنبية ، لأنه النتيجة الطبيعية التى لا خلاف عليها : نتيجة طبيعية غريبة لمقدمات طبيعية أغرب منها

□

« أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟ »

ان المؤرخ الذى لا تلجئه هذه الأطوار وأشباهها فى تاريخ الهند الى القاء هذا السؤال على نفسه يتعرض للنظر فى التاريخ بعين لا تبصر ، وليس أعمى من لا يريد أن يرى كما كان يقول جناح

ومسألة « الزعيم المناسب » فى الحركة الهندية الحديثة هى احدى المسائل التى تلجىء المؤرخ الى تكرار ذلك السؤال ، ولا كذلك مسألة الزعيم فى كثير من الأقطار ولاسيما الأقطار الأوربية ، فان مكان الزعيم فيها يمتلىء كما يمتلىء مكان الحرف الناقص فى الصحيفة المطبوعة ، مكان محدود وحرف يتمم الكلمة كسائر الحروف ، وكلمة معروفة التهجئة فى كل الصندوق

اما الزعيم الذى يأتى الى مكانه فى الحركة الهندية فهو اشبه بالحرف الذى يتعين به هجاء الكلمة ويتعين معناها ، ولا تتم الكلمة قبل استقراره فى مكانه

كم تصفية للزعماء تمت قبل بعث العصبة الاسلامية

كم تصفية للحوادث سبقت قبل ان تتهيأ الباكستان لزعامة جناح ، وقبل ان يتهيأ جناح لزعامة الباكستان

كم تطور جناح ، وكم تطورت حوادث الهند ، وكم تطورت حوادث آسيا بين الصين واليابان والسياسة الامريكية والسياسة الأوربية على التعميم وسياسة بريطانيا العظمى على التخصيص ؟ وكم بدل هذا التطور من عزائم الدول وعزائم القادة قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها

وكم كان لهذا التطور من شأن فى اعداد كل خطة واعداد كل قضية واعداد كل زعيم

اقصد ام اضطرار ؟

سؤال لا بد منه على الأقل ، ان كان هناك بد من الجواب على نحو معلوم

وتحضرنا هنا أحجية الشمسية التى اشار اليها جناح

فى بعض خطبه ، فقد ضحك الناس من أول رجل شوهد فى الطريق وهو يحمل شمسية ... فلما كثر حاملوها ضحك حامل الشمسية الاول من أولئك الضاحكين المتعجلين

مثل للزعيم الذى يبده الناس بفكرة غريبة ، ثم لا تلبث تلك الفكرة الغريبة أن تصبح مألوفا كأشيع المألوفات

والمثل صالح للقياس عليه

فمتى يكف الناس عن الضحك من حامل الشمسية ؟ انهم يكفون عن الضحك منه حين تكون حاجتهم الى الشمسية قائمة ولكنها مجهولة ، فيسبقهم أى انسان الى اثبات هذه الحاجة ، ويلحقون به بعد قليل

وفى هذه الحالة نسأل : كيف وجدت الشمسية ؟ هل وجدت لأن حاملها الاول اخترعها أو لأن الناس محتاجون الى اختراعه ؟ ومن صاحب الأثر الفعال فى هذه الحالة : المخترع أو الذين اخترعت الشمسية لأجلهم ، ومن أجل حاجتهم اليها كفوا عن الضحك منه واستغراب مفاجأته ؟

وكيف أحس الرجل بحاجة الناس ؟ أهى مصادفة أم هى حس أم هى الهام على غير وعى منه ولا ارادة ؟

المحقق أن الشمسية تظل مضحوكا منها لو بقيت بدعة لا تتكرر ، والمحقق أنها تبقى بدعة لا تتكرر لو لم يشعر الناس بالحاجة اليها

والأحجية هى : لماذا اتفق اختراعها والناس يضحكون منها ، ولماذا اتفق اختراعها وهم مستعدون للعلم بلزومها ؟

هذا هو لغز التاريخ

مفاجأة غريبة يبدو بعد حين أنها ليست بغريبة ،

ويتساءل البـاحث : كيف تكون مقصودة وهى سـخرية الساخرين ؟ وكيف تكون مصادفة وهى حاجة مطلوبة ؟

بعض العقول يفسر الأحجية على طريقته فيقول اننا نحسب الاختراع مقصودا مدبرا لأننا ننسى مئات من المفاجآت التى ضحك الناس منها ثم ماتت ومات ذكرها لأنهم لم يشعروا بالحاجة اليها ، فاذا جاءت مفاجأة فى حين الحاجة اليها فتلك مصادفة صحت من مئات المصادفات التى عفى عليها النسيان

وبعض العقول يفسر الأحجية على طريقته فيقول : ان « المصادفة » التى تصح ليست مصادفة ، لأنهـا صحت بأسبابها ولم تصح بأسباب غيرها ، ولم تدم بعد صحتها بمصادفات أخرى أوجبت لها الدوام

وبين علماء الطبيعة خلاف كهذا الخلاف بين علماء التاريخ

هل وجدت العين بهذا التركيب لتنظر ؟

او هى قد نظرت لأنها وجدت بهذا التركيب ؟

وبعبارة أخرى : هل هو قصد أو اضطرار ؟

ونخال بعد تقليب السؤالين على شتى الوجوه أن الخلاف بينهما كالخلاف بين القائل ان الغطاء يطابق آنيته والقائل أن الآنية تطابق غطاءها !.. فالمهم أن التوافق قد حصل

غير ان القائلين بالمصادفة يقولون أنه حصل بعد مليون سنة ولم يحصل بعد لمحة واحدة ، فهل هم على صواب ؟ ومن أين لهم أن تحقيق الغرض مرهون بوقت محـدود ، يشترط فيه على الدوام أنه وقت قصير ؟

ان الفريقين يتفقان ويتقابلان فى وسط الطريق ، فكلهم

يقولون أن الوظيفة تخلق العضو الذى يؤديها ، وان ارادة النظر هى التى أوجدت أشكالا والوانا من النواظر

ارادة النظر تسبق النظر

حسن ... هذا فى بنية حيوان صغير أو كبير ، فكيف اذا كانت البنية بنية الكون بما رحب من الآزال الى الآباد ؟ اليست ثمة وظيفة تتبعها أعضاء تناسب المقام ؟ اليست ثمة ارادة تتبعها أعمال صالحة لأغراضها ؟ أيشترط فى الوظيفة التى تسبق العضو ان تكون صغيرة محصورة ويمتنع عليها أن تكون عظيمة غير محصورة ؟ أيفرض عليها ان تكون جزءا من الكون ويحرم عليها أن تكون فى الكون بما رحب من الآزال الى الآباد ؟

غاية الخلاف بين القائلين بالمصادفة والقائلين بالقصد فى التاريخ وفى الحياة العضوية ان الغطاء يطابق آنيته وأن الآنية تطابق غطاءها

أو غاية الخلاف على وضع آخر أن المطابقة تمت فى عشرات الملايين من السنين أو هى قد تمت فى لمحة وما دونها

خلاف على العرض لا على الجوهر

واذا كانوا مع هذا الخلاف يتفقون على سبق الوظيفة للعضو ، وسبق الارادة للوظيفة ، فلا حرج عليهم أن يسموا الوظيفة التى تريد للكون كله بما شاءوا من الأسماء ، وليفهم من شاء ما بدا له أن يفهم من القصد ، وليفهم من شاء ما بدا له أن يفهم من المصادفة ، فانهما كلمتان ، معناهما سواء